أحمد فكري

آثار تونس الإسلامية

ومصادر الفن الإسلامي بافريقية وتونس وليبيا

تقديم: الأستاذ عمر سعيدان

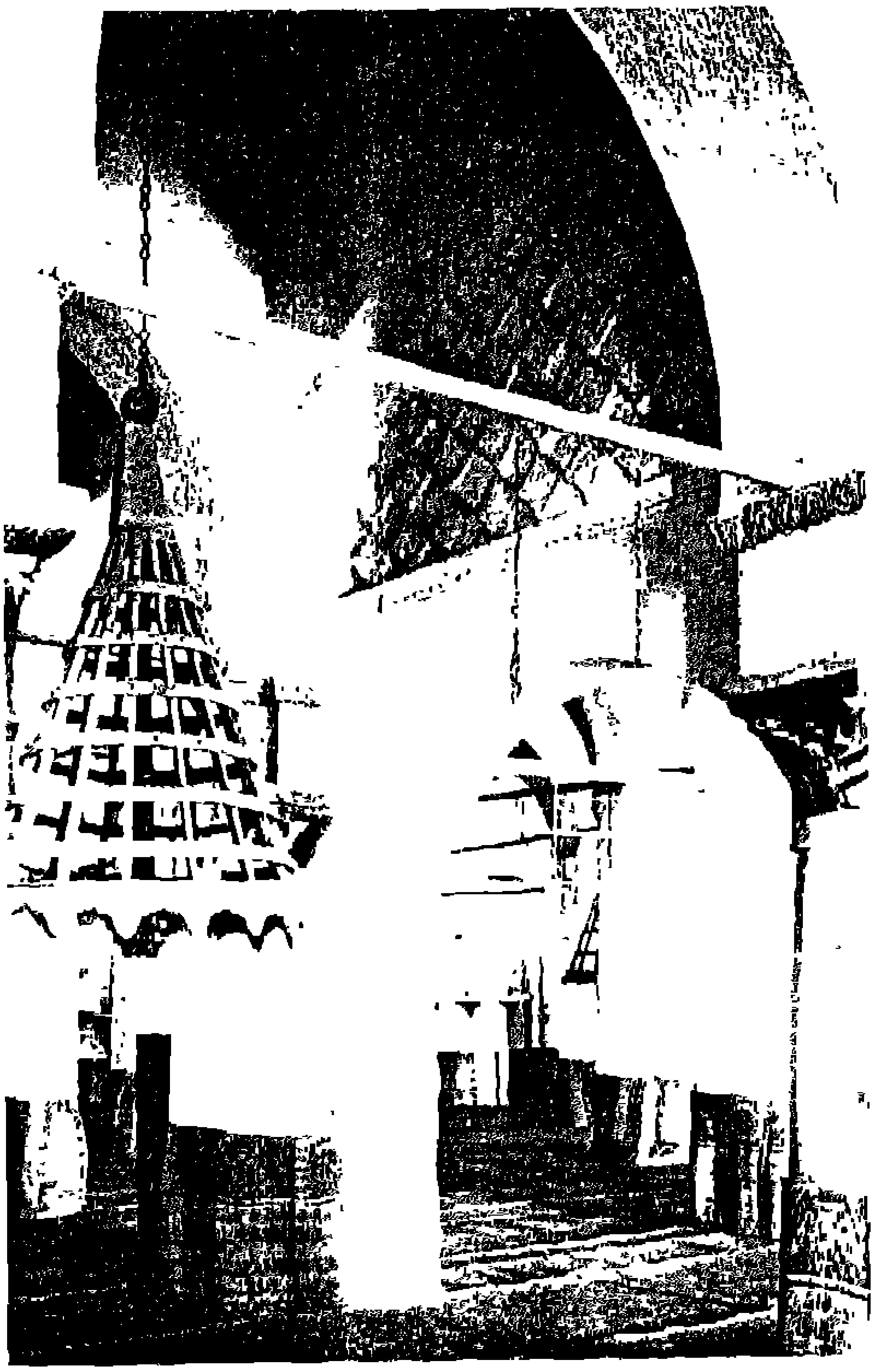

مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر - سوسة - الجمهورية التونسية

أحمد فكري

أستاذ الآثار الإسلامية

بجامعة فاروق الأول سابقا

مصطفى زبيس

باحث و أستاذ

علم الآثار بتونس

آثار تونس الإسلامية

و مصادر الفن الإسلامي بافريقية و تونس و ليبيا

مؤسسة سعيدان للطباعة و النشر

سوسة - تونس

الطبعة الثانية عن طبعة
دار المعرفة الأولى سنة 1949

مصادر الفن الإسلامي بتونس و أهميتها

دخل الإسلام افريقية تونس اليوم مبكّرا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب في العقد الثالث سنة 23 هـ ثم أيّام عثمان بن عفّان كانت غزوة العبادلة السّبع بقيادة عبد اللّه بن أبي سرح صحبة عبد اللّه بن الزّبير ثمّ كانت غزوة الفتح الكامل بقيادة عقبة بن نافع الفهري الذّي اختطّ مدينة القيروان سنة 50 هـ و مسجدها جامع عقبة البديع و الفريد من نوعه و بنشأته كان تجسيد أوّل مركز للفّن الإسلامي في افريقية و المغرب و كان المثال و الأنموذج وكان بصفة عامة المسجد أوّل معمار يتجسّد في الإسلام فهو أوّل عمارة قام لها الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم عندما هاجر للمدينة اعتبارا لما يحتاجه المسلمون و المصلّون في صلاتهم و لطبيعة الصّلاة و نظامها دون الإقتباس من معابد الديانات الأخرى سواء كانت كنائس أو بيع و هو ماأكّده بعض علماء الأثار و المستشرقين كجورج مارسي و صاحب هذه الدّراسة أحمد فكري على عكس ماكان ذهب اليه علماء الآثار في القرن التّاسع عشر و النصف الأوّل من القرن العشرين .

إن الآثار الإسلامية بتونس تؤكد أكثر من غيرها طابعها الإسلامي الصّرف و عدم اقتباس عمارة المساجد من الكنائس و المعابد العتيقة، فالآثار الإسلامية الباقية بتونس تقوم شاهدا على الدور الرّيادي لتونس في عالم الفن الإسلامي فيعتبر المعمار الإسلامي التونسي بمساجد عقبة بالقيروان و الزيتونة بتونس و الجامع الكبير بسوسة و مسجد قصر الرّباط بها فريدا و ثمينا جدّا لأنّ هذه المعالم من أقدم الآثار الإسلامية و أهمها لمحافظتها على شكلها الأوّل و طابعها الإسلامي الخاص الذّي لم يتأثر بمعمار أجنبي و بقي على طريقة تونسية اسلامية اختصّ بها البنّاؤون بافريقية و تونس من ذلك المحراب و تقويره و الدّعائم التي تشدّ الأقواس و تدعم القبو دون السوارى التي اعتاد البناؤون جلبها من الآثار القديمة المتواجدة بالبلد و نظام الدعائم و طريقة توازيها و جمال النقش على لوحات المحاريب و الجدران و الأبواب .

و يؤكد جورج مارسيه في الموسوعة الإسلامية في فصل فن بالجزء الأوّل و في كتابه عن الفن الإسلامي بأن المساجد التونسية الأربعة : عقبة و الزيتونة و المسجد الجامع بسوسة و مسجد قصر الرباط بها تعتبر أقدم المساجد و أعرقها و هي الوحيدة القائمة إلى اليوم و المحتفظة بخصوصيتها القديمة و نظامها الأوّل بل يؤكد هذا المستشرق بأن مسجدي سوسة يقيمان الدليل القاطع بأن تخطيط المساجد يخضع قبل كلّ شيئ لخصوصية الدين الإسلامي و لنظام أو تخطيط و ضعه المعماريون و البناؤون من أهل افريقية و كان فنّهم مثالا لغيرهم و انتشر ببلاد المغرب و الأندلس و المشرق في العهد الفاطمي .

ويظهر هذا الفنّ المستحدث في القباب و طريقة بناء الأقواس ذات الاتّجاه العمودي بالنّسبة لجدار القبلة و في الدعائم الموازية لهذا الجدار و في المحراب المجوّف الذي كان مستحدثا و غير مستورد أو مقتبس فالمحراب الذي كان أقامه عقبة سنة 50 هـ مجوّف و هو لا يزال قائما الى اليوم و ان اختفى وراء المحراب الأغلبي الذي بني في عهد زياد اللّه بن ابراهيم الأغلبي و يعتبر أقدم محراب مجوّف ظهر في المساجد و مثله كان محراب سوسة و كذلك الأمر

بالنسبة للقباب المرتكزة على الأقواس و هذه العناصر مميّزة للفن المعماري الإسلامي العتيق بتونس، انتقل منها الى بلاد الإسلام قاطبة.
و الملاحظ أنّ نظام القبب المرتكز على الأقواس ظهر أوّلا بمسجد عقبة و انتقل في العهد الأغلبي بعد خمسة عشر عاما الى المسجد الجامع بسوسة و بعدها بأربعة عشر عاما أقيمت قبّة المحراب بجامع الزيتونة المعمور فبالمساجد التونسية و الإفريقية الأخرى بطرابلس و ليبيا و سائر بلاد المغرب و جميعها يحتوي على عناصر قبّة القيروان و لم يتوقف تأثير العمارة التونسية على البلاد المغربية و المشرقية بل تعدّاها الى البلاد الغربية فكانت قباب كاتدرائية الوي بفرنسا كما يؤكده الأستاذ أحمد فكري – مقتبسة عن قبّة جامع الزيتونة التي سبقت قبّة كاتدرائية الوي بمائة و خمسين سنة .
انّ هذه الخصوصيات التي تميّزت بها الآثار الإسلامية بتونس تجعل هذه المعالم فريدة من نوعها و شاهدا على أصالة هذا البلد و عراقته و دوره الإسلامي الرّيادي و ماله من مجد حضاري تليد بآثار مدينة سوسة الإسلامية التي ترجع الى عهد الأمير الأغلبي زيادة اللّه بن ابراهيم الذي أذن ببناء أقدم مسجد بها :

مسجد فتاته بسوسة سنة 223 هـ ثم المسجد الجامع سنة 236 هـ الذي أمر بتشيده الأمير أبو العبّاس محمد بن الأغلب .فلقد اختصّت معالم مدينة سوسة الإسلامية بطريقة جديدة في البناء لم تتبع في المساجد الأخرى التي سبقتها سواء بافريقية أو المشرق و تتمثل في استعمال الدعائم عوضا عن السّواري التي كانت هي الأعمدة في المساجد و المباني لتوفرها في الآثار القديمة الروّمانية و البيزنتية أمّا في سوسة جوهرة الساحل فلقد اعتمد البنّاؤون هذه الدّعائم عمدا للأقواس و هذه أوّل مرّة يظهر فيها هذا النظام المعماري الخالي من آثار دخيلة قبل ظهوره بمصر بثمانين سنة في مسجد ابن طولون لذلك كانت للآثار الإسلامية بتونس هذه القيمة الفنيّة الكبيرة و هذه الأهمية التي تؤكد أصالة هذه البلاد و عراقتها بل مكانتها في تاريخ الفنّ الإسلامي و مجدها الحضاري بصفة عامة وهو ما أكده الأستاذ أحمد فكري في هذه الدراسة التي نشرها سنة 1949 مع مقال للأستاذ و الكاتب العام لجمعية الآثار التونسية السيد مصطفى زبيس و يحتل لذلك الفصل الهام الذي كتبه العالم و الباحث في الآثار الإسلامية و الأستاذ بالجامعة المصرية بالقاهرة (جامعة فؤاد الأوّل سابقا) أحمد فكري،

منذ أكثر من نصف قرن أهمية كبرى و مصدرا أساسيا لدراسة الفنّ الإسلامي بتونس و كذلك المقال الطريف و الدراسة التاريخية المفيدة للمؤرّخ و عالم الآثار الأستاذ مصطفى زبيس عن جوامع ليبيا و مساجدها و ما كان للفنّ المعماري الإسلامي التونسي من تأثير عليها ولا سيما أن افريقية كانت تمتد قديما لهذه الرّبوع فالأستاذان خدما الفن الإسلامي و الفن المعماري الإسلامي التونسي أجلّ خدمة و أثريا ذاكرتنا الحضارية الإسلامية و الفنية بما يعود بالفائدة على كل باحث و دارس بتونس و خارجها . ولأهمية هذه الدراسة و طرافتها و لحاجة الدّارسين اليها أقدمت مؤسسة سعيدان للطباعة و النشر على إعادة طبع هذا الكتيب الذي مضى على طبعته الألى و نشره من قبل دار المعرفة أكثر من نصف قرن خدمة لتاريخ الفنّ الإسلامي بتونس و لتونس العربية الإسلامية و بذلك تكون هذه الدّار قد أوفت بتعهدها و عملت و فقا لمبادئها و ساهمت في خلق شعور الإعتزاز بدور تونس الحضاري و الإسلامي عبر مختلف العصور .

والحمد للّه والشكر له سبحانه وتعالى عليه نتوكل ونستعين .

عمر سعيدان

سوسة – الجمهورية التونسية

اثار تونس الاسلامية

ومصادر الفن الاسلامي

تحتل اثار البلاد التونسية من مصادر الفنون الاسلامية مكان الصدارة • او على الاقل مركزا ممتازا • والفن الاسلامي كما يدل عليه لقبه • نشا بنشاة الاسلام وقام اولا وقبل كل شيء من خدمة ديانته • كان المسجد اول شيء تجسد في الاسلام واول حجر اسس في عمارته • وكان اول ما عمله الرسول صلى الله عليه وسلم عند ما وطئت قدمه المدينة ان اختط بيتا للصلاة • وانشا مسجدا للمسلمين • وكان علماء الاثار يعتقدون ان المسجد صورة محورة عن الكنائس وقال البعض الاخر انه اشتق من المعابد القديمة وتضاربت النظريات في نشاة العمارة الاسلامية • وقد ادليت بنظرية في هذا الشان منذ ثلاثة عشر عاما وحاولت ان ابين فيها ان مقتضيات الصلاة وفروضها وسننها وعادات العرب وطبيعة بلادهم • كل هذا دون غيره كان الاساس في تكون نظام المسجد الذي يجتمع فيه المصلون للصلاة • ويسرني ان يكون اخر مؤلف في الفن الاسلامي وقد ظهر في مستهل هذا العام • وهو كتاب الاستاذ جورج مارسيه الذي يعتبر في الوقت الحالي اكبر عالم اروبي في

واقر بان المسجد بناء اسلامي مستحدث في فن العمـارة وان الديانة هي التي املت نظامه • ويقول في هذا :

L'anatomie des mosquées s'explique par le culte

كما يقول بعد ذلك

La proportion de la salle des prières, très large et peu profondè, est logiquement determinée par l'ordonnance de la prière collective.

الفضل في ذلك يرجع معظمه الى الاثار التونسية• لا لانها اكثر الاثار الاسلامية فخامة و عظمة او سعة او عددا • فقد يفوقها في هذه النواحي ءاثار الاندلس وءثار مصر والشرق بل لانها تحوي اقدم المساجد القائمة الى اليوم • المحتفظـة بعناصرها العتيقة و بنظمها الاولى •

مطابقة نظام تخطيط المساجدلمقتضيات الصلاة فيمساجد القيروان والزيتونة وخاصة في المسجد الجامع في سوسة وفي مسجد قصر رباطها تظهر في صورة اوضح واجلى منها في اي مسجد ءاخر من المساجد في بلاد الاسلام كلهـا • واذا كان مظهر بيوت الصلاة في غالبية المساجد يجلو في شكل بلاطات اصطفت الاقواس والسواري على جوانبها لتـوءدي من صحن المسجد الى جدار القبلة • فقد اسفرت دراستنا لمواقـع هذه السواري في مسجد القيروان والزيتونة ولمواقع الدعائم في المسجد الجامع في سوسة عن التاكد بصفة قاطعة من ان بنائي هذه المساجد قد اختطوا على سطح الارض • وقبل كل شيء

جدار القبلة ثم [illegible] صفوف السواري او الدعائم موازية لهذا الجدار موازاة تـامة . وثبتوا اوضاعهـا على هـذا الاساس وان كانوا تولوا بعد ذلك بناء الاقواس في اتجاه عمودي على جدار القبلـة . حتى لا تعترض هذه الاقواس الضوء الداخل من منافذ الصحن الى بيت الصلاة • ولهذا كان البعد في بيوت صلاة المساجد التونسية التي اشرت اليها بين الساريتين المتجاورتين عند بداءة المسكبة على الجدار الشـرقي لبيت الصلاة يطابـق تماما البعد بين الساريتين المقابلتين لها عند نهاية هذه المسكبة نفسها على الجدار الغربي من هذا البيت • اما اذا قيس البعد بين الساريتين المتجاورتين عند بداية احدى البلاطات على صحن المسجد فكثيرا ما يتضح ان هذا البعـد يختلف تبعـا لمقتضيات البناء عن البعد بين الساريتين المتقابلتين لهما عنـد نهاية هذه البلاطة نفسها امام جدار القبلة

ولو ان الاستاذ جورج مارسيه او الاستاذ كريسويل لاحظا هذه الأصول المتبعة في تخطيط المساجد وبنائها لما ادعيا ان اتجاه البلاطات في بيوت الصلاة يوافق اتجاه فناءات الكنائس والمعابد المسيحية • ولما عاد الاستاذ جورج مارسيه في نفس الكتاب الذي اشرت اليه من مدة وجيزة فادعى ايضا ان بعض انظمة مسجد القيروان قد تعيد ذكرى انظمة الكنائس

(Souvenir probable du plan des basiliques)

تخطيط المساجد على الصورة التي حـاولت شرحهـا والتي تتبين واضحة اتم الوضوح على الرسـوم الـدقيقة التي

إخذتها من مساجد القيروان وسوسة والزيتونة • هذا التحقيق يدل دلالة لا يتطرق الشك اليها على ان نظام المساجد نظام مستحدث مبتكر في فن العمارة • نظام مطابق لسنة الديانة الجديدة . مطابق للنظام الذي رسمه النبي صلى الله عليه وسلم في نفس المربد الذي بركت فيه ناقته في المدينة .

ونظام بناء المسجد يتكامل بعنصر آخر هو المحراب • وقيل في المحراب المجوف انه مشتق من الكنائس وانه استحدث في مسجد المدينة على عهد الوليد في اواخر القرن الاول الهجري ، وقيل ان الوليد هذا استقدم حينئذ عمالا من القبط لتعمير مسجد الرسول وان هؤلاء هم الذين احدثوا فيه المحراب المجوف •

وقد كان للمسجد الجامع في القيروان الفضل في نقض هذا الادعاء . وقد اثبتنا ان المحرب الذي أقامه عقبة في سنة خمسين للهجرة كان مجوفا وما زال قائما الى اليوم • واوضحنا في بحث ظهر هذا العام اساس الفكرة في تجويف المحراب وان محراب مسجد القيروان اقدم محراب مجوف ادخل على المساجد • وفيما نعرف قائم الى اليوم • غير ان هذا المحراب يختفي وراء المحراب الذي اقيم في عهد زيادة الله • وليس هذا فريدا في الاثار التونسية • فبمسجد المهدية محرابان • احدهما ظاهر • والآخر وهو اقدم عهدا يستتر وراءه • ولعل

البحث يكشف قريبا عن محاريب اخرى من عهد الفتح اومن العصر الذي يليه توئيد هذه النظرية

ولا يقتصر فضل القيروان على التخطيط فان هذا المسجد العظيم يحوي عناصر معمارية ظهرت فيه لاول مرة في تاريخ العمارة • او على الاقل يبقى فيها اقدم الامثلة التي لاقت من بعده انتشارا كبيرا في بلاد الشرق والغرب واصبحت من العناصر المميزة للعمارة الاسلامية • واذكر من هذه العناصر اقواس مسجد القيرون وسوسة الشهيرة

ولعله من المفيد ان نعيد البحث في القباب • ولا شك ان اول مثل اسلامي للنظام المبتكر للقباب المرتكزة علي اقواس يظهر ايضا في مسجد القيروان • وسواء أكان الفضل في وضع هذا النظام الجديد يعود الى الفرس او الى الرومان • وسواء اكان الاصل في اشتقاق هذه القباب يرجع الى مصر القبطية ام الى افريقية البيزنطية • اذ يختلف علماء الاثار عادة • كل حسب نزعته • في ارجاع عناصر الفنون الاسلامية الى اصولها القديمة . كما يختلف افراد الاسرة الواحدة امام مولود جديد يتنازعون ملامحه واشباهه • ايا كان الاصل في هذه القباب فانه لا يضعف شان بناء القيروان . لان الفكرة التي تجمعت لهذا البناء فاخرج منها قبته كانت فكرة اصيلة لم تنقل عن مرجع سوري او روماني او فارسي او مصري • اذ لم يسبق لبناء من البناة ان ادخل على قبته تلك العناصر التي تتكون منها قبة

القيروان أو أقامها على مثل الاسلوب الذي تقوم هذه عليه

ولو ان الامر اقتصر على قبة مسجد واحد لصح القول بان بناءها استقدم من بلد اجنبي عنها وانها دخيلة على الفن الاسلامي التونسي . غير انها لا تقوم وحدها في الاثار التونسية . ولا شك انه كانت بهذه البلاد فرق عديدة ممتازة من البناة المسلمين . وان قبة القيروان سبقتها قباب من اعمالهم كما تبعتها قباب اخرى . وقد استطعت منذ ايام فقط ان استدل على احدى هذه القباب في المسجد الجامع بسوسة . فاذا هي صورة مبسطة من قبة القيروان ولكنها تحوي جميع عناصرها اقيمت قبة سوسة بعد قبة القيروان بخمسة عشر عاما . واقيمت في مسجد الزيتونة قبة المحراب بعد قيام قبة سوسة باربعة عشر عاما سنة خمسين ومائتين وهي ايضا تحوي عناصر قبة القيروان كلها بل وتفوقها دقة في الصناعة ودقة في الزخرف . وتدل دلالة بينة على ان بناتها ورثوا صناعتهم عن بناة القيروان . وعلى انه كانت توجد بهذه البلاد كما اشرت اليه من قبل طبقة من البناة المسلمين الفوا بناء القباب وحذقوا صناعتها وكان لهم الفضل في انتشار هذا النظام المعماري انتشارا كبيرا في البلاد الاسلامية كلها . فقد كانت الديار التونسية في تلك العصور الاولى حلقة اتصال الشرق بالغرب . وكانت في ذلك حتى أثناء العصر الفاطمي اكثر وقعا من مصر . كانت تستقبل الرحالة والحجاج والتجار من المغرب والاندلس ومن صقلية

وايطاليا ومن مصر والشرق قاطبه • واذا كانت تقبلت الايحاء الفني من هذه البلاد فانها كانت في الوقت نفسه توفد ابناءها شرقا وغربا في تلك الامة الاسلامية الشاسعة الارجاء • وكانت ترد اليها من ايحائها الفني ما لا زلنا نلقى آثاره في الاندلس وفي بلاد المغرب وفي صقلية وفي مصر والقاهرة

والقباب اكبر دلالة على ذلك • فانا نلقى نماذج من القباب التونسية في هذه البلاد كلها بل تعدى اثرها هذه الحدود الى البلاد الاروبية • فان في كاتدرائية بلدي البوي في وسط فرنسا مجموعة من القباب اقيمت على نمط القباب الاسلامية واشتقت اصولها من القباب التونسية • وقد ازدادت ثقتي بهذا الراي بعد ما ازيلت عن قباب مسجد الزيتونة طبقات الجير التي كانت تخفي معالمها الخارجية وبعد ان قارنت جسورا من واجهة هذه الكاتدرائية بالصور التي التقطتها اخيرا من واجهة قبة البهو في مسجد الزيتونة فقد ظهرت اوجه الشبه بين الاثرين واضحة عجيبة • وهذه القبة اقدم عهدا من كاتدرائية الوي بمائة وخمسين سنة

ولننتقل من تونس والقيروان الى سوسة • فانا نلقى بها مجموعة من الاثار الاسلامية فريدة في مظهرها وفي بنائها وفي زخرفها فريدة في عصرها وتاريخها • وفي البلاد الاسلامية قاطبة • اقيم فيها قصر الرباط سنة ست ومائتين • امر ببنائه الامير الاغلبي زيادة الله بن ابراهيم • واقيم فيها مسجد ابي

فتاتة سنة ثلاث وعشرين ومائتين امر ببنائه ابو عقال الاغلب ابن ابراهيم وانشيء المسجد الجامع بها سنة ست وثلاثين ومائتين . امر بتشييده الامير ابو العباس محمد بن الاغلب . وتم بناء اسوارها سنة خمس واربعين ومائتين في عهد ابي ابراهيم احمد • واقيمت القصبة وبرج الفتى سنة اربع وخمسين ومائتين في عهد الامير الاغلبي ابي عبد الله محمد

تمتاز اثار سوسة هذه بطريقة جديدة في البناء وهي الدعائم • كان البناؤون في العصور الاولى للاسلام يتخذون السواري عمدا في المساجد والمباني لكثرة ما كانوا يلقونه منها في الاثار القديمة والكنائس المهجورة • اما في سوسة فلعلهم لم يجدوا فيها او بالقرب منها عددا من السواري يسمح لهم باقامة مبانيهم في الرباط او في المساجد او في القصبة • فابتكروا هذه الدعائم • والدعائم كانت معروفة منذ الازمنة القديمة واستخدمت في الفنون السابقة للاسلام • ولكنها لاول مرة فيما نعرف تستعمل في سوسة بطريقة نظامية عامة في جميع اجزاء البناء باعتبارها عمدا للاقواس • لاول مرة يظهر المسجد خاليا من تلك السواري الدخيلة عليه من الكنائس والمعابد • ولاول مرة تظهر اثار العامل المسلم في البناء كله • وتناول يده جميع اطرافه تخطيطا وتاسيسا وبناء وتسقيفا لقد كان مسجد ابن طولون في القطائع تلك العاصمة التي انشاها بمصر بجوار العسكر والفسطاط • كان هذا المسجد يعد

وثائق مصورة
لكتاب آثار تونس الاسلامية

١) منارة قصر الرباط في سوسة ـ تصوير الاستاذ احمد فكري
٢) احد الابواب الاصلية في المسجد الجامع بسوسة التي اندثرت اثناء الحرب الاخيرة ـ تصوير الاستاذ احمد فكري
٣) بيت الصلاة في جامع الزيتونة ـ تصوير الاستاذ احمد فكري
٤) زخارف محراب المسجد الجامع في القيروان ـ تصوير الاستاذ احمد فكري
٥) دعائم بيت الصلاة في المسجد الجامع بسوسة ـ تصوير الاستاذ احمد فكري

آثار مصورة لمساجد ليبيا

٦) جامع شارع الزاوية ـ تصوير غزي كارلو بطرابلس
٧) مسجد وزاوية بشارع الشط ـ تصوير غزي كارلو بطرابلس
٨) الزاوية الكبرى للمولا مراد ـ تصوير غزي كارلو بطرابلس
٩) جامع قحطان ـ تصوير غزي كارلو بطرابلس
١٠) جامع سوق الجمعة ـ تصوير غزي كارلو بطرابلس
١١) جامع الخروبة ـ تصوير غزي كارلو بطرابلس
١٢) جامع قرجي ـ تصوير غزي كارلو بطرابلس
١٣) جامع الخروبة ـ تصوير غزي كارلو بطرابلس

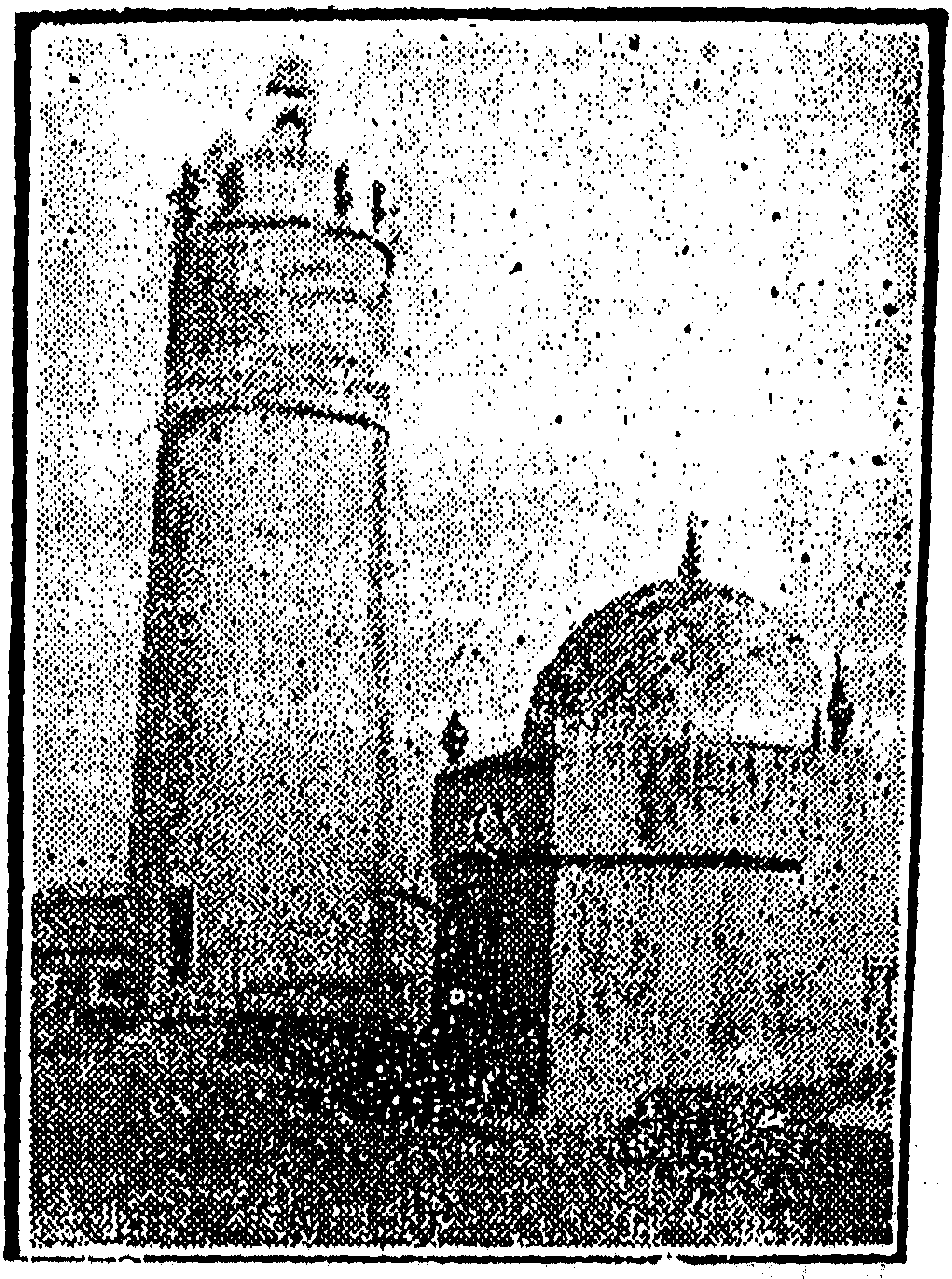

منارة قصر الرباط بسوسة

أحد الأبواب الأصلية في المسجد الجامع بسوسة

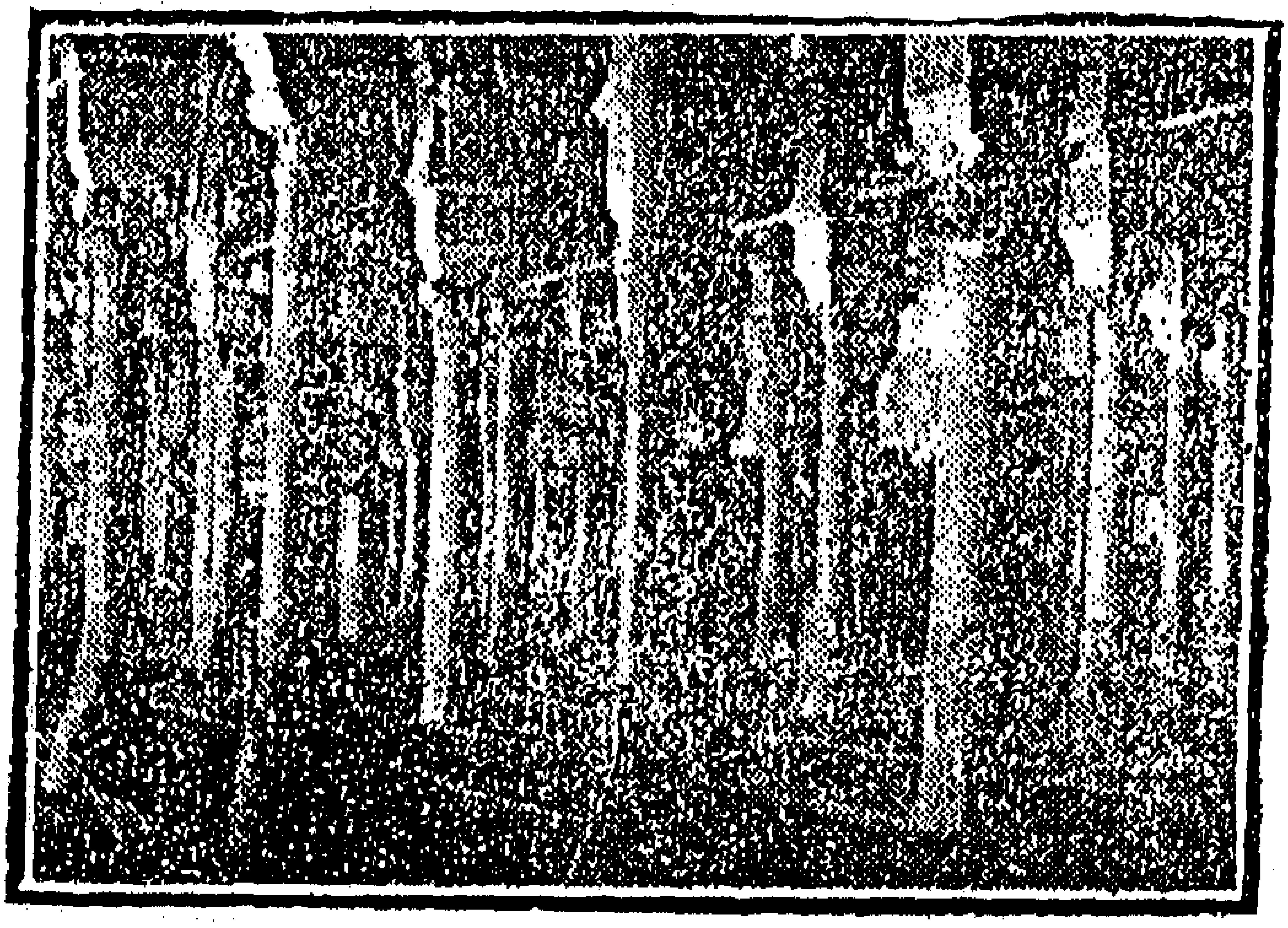

بيت الصلاة في جامع الزيتونة

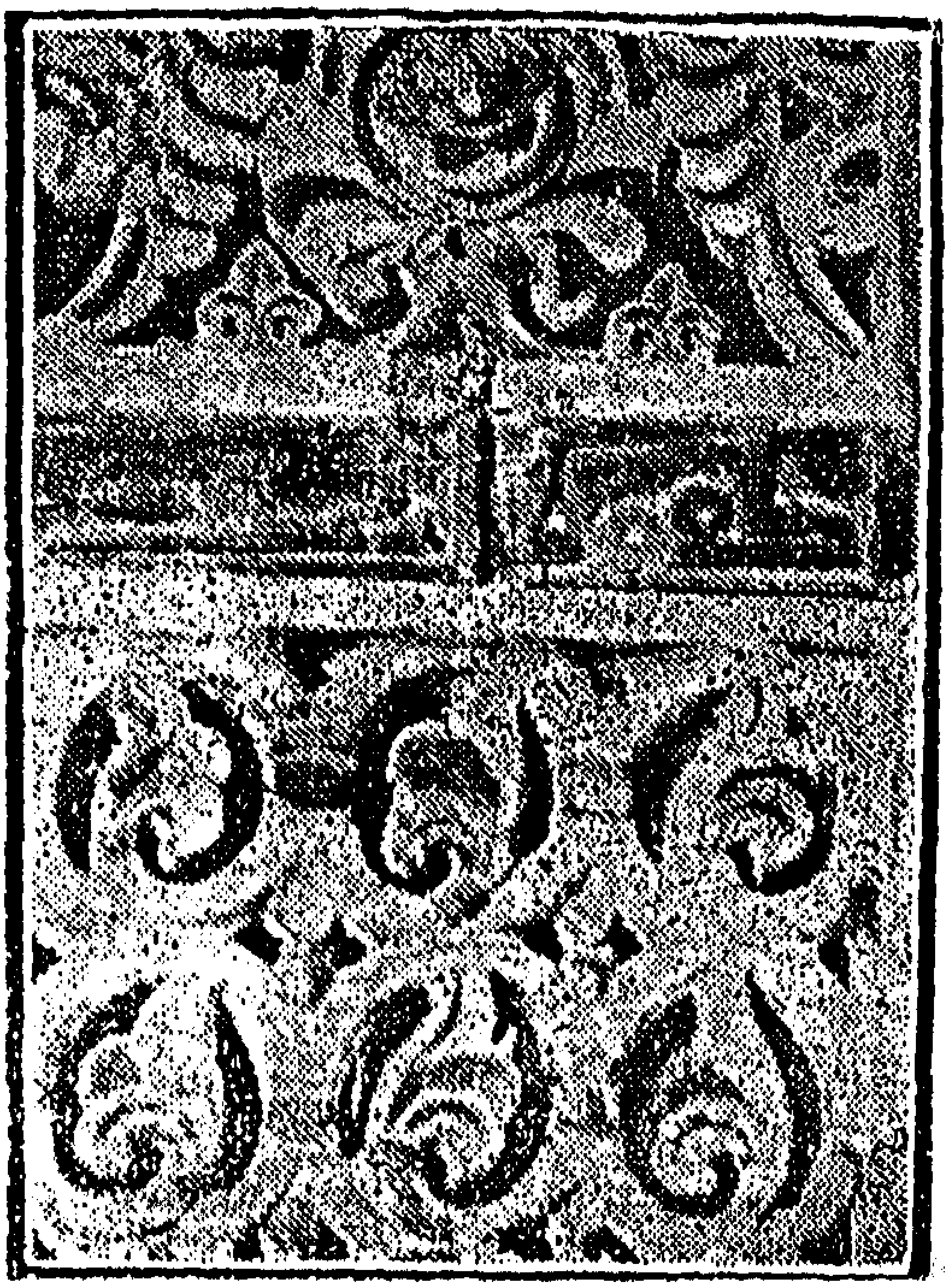

زخارف محراب المسجد الجامع في القيروان

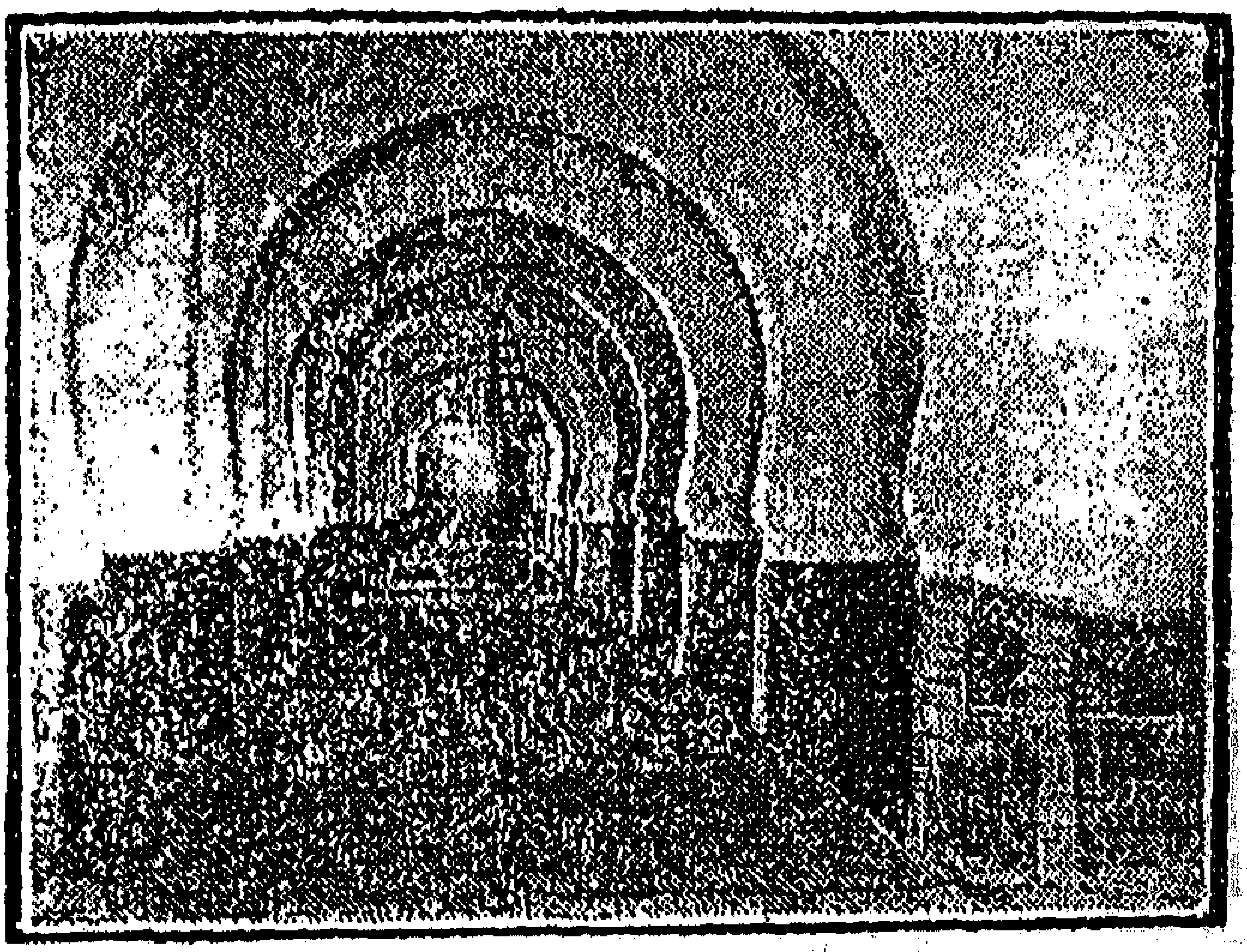

جامع سوسة : دعائم بيت الصلاة

فريدة بين اقرانه لانه استبدلت فيه السواري بالدعائم •
وحيكت حول ذلك القصص لتفسير هـذا الابتكار الجديد •
الذي اغنى البنـاة عن البحث عن السواري ، فقد كان بنـاء
المسجد الواحد يتطلب المئات منها • وقد ظهر هذا الابتكار
في سوسة قبل ظهوره في مصر بثمانين سنة • واغلب الظن فيما
اعتقد ان مباني سوسة هي التي اوحت الفكرة لبناء مسجـد
ابن طولون • خصوصا وان بهذا المسجد اشكالا زخرفية تطابق
مطابقة تامة نظائر لها كانت تزين حتى زمن قريب ابواب
مسجد سوسة • وفي هذا برهان ساطع على مدى تاثر فن البناء
في بلاد الشرق بالفن التونسي في عصر الاغالبة • وفي العصور
الاولى •

ليست هذه هي الميزة الوحيدة التي تمتـاز بها تلـك
المجموعة الفريدة من الاثـار الاسـلاميـة التي تجمعت في بلد
واحد . وفي عصر واحد . والتي تـدل على الاقل كما اشرت
اليه من قبل • على وجود عمال مسلمين استوطنـوا البـلاد
التونسية • مارسوا صناعة البناء وتوارثوها • وهذه بعض اثارهم
تظهر تباعا في سنة ست ومائتين • ومن سنة ثـلاث وعشرين
ومائتين • وفي سنة ست وثلاثين ومائتين • وفي سنة خمس
واربعين ومائتين • وفي سنة اربع وخمسين ومائتين

وهنا اود ان اتحدث عن ميزة اخرى لهذه الاثار • وهي
عادة تسجيل تاريخها • لسنا نعرف اثرا يحمل تاريخ بنائه

وستين للهجرة • اما بعد ذلك فاول الآثار المعروفة هي آثار
سوسة • انها تسجل تاريخها بحيث ابقت ذكرى عهودها خالدة
على ممر الايام • ولا شك ان هذه العادة على خلاف ما يدعيه
بعض العلماء الاروبيين • كانت متبعة في جميع الآثار • كما
اتبعت في مشاهد القبور الاسلامية • وآثار سوسة اوضح دليل
على ذلك فانها تحمل وحدها كما راينا تاريخ الاغالبة في
عهود خمسة من امرائهم الاحد عشر • وقد عثرت في القيروان
اخيرا على آثار لموضع الكتابة التي كانت تمتد على واجهة
بيت الصلاة المطلة على البهو • قبل زيادة بلاطاته • واقامة قبة
البهو • ولا شك ان هذه الكتابة كانت تحمل اسم منشئها
وتاريخ تجديد المسجد • وقد ظلت هذه العادة قائمة في الآثار
التونسية • واتبعت بعد ذلك في الآثار الاسلامية في جميع
البلاد واصبحت خير دلالة على اهتمام المسلمين بفنون العمارة
حتى ليفخر العظيم او الامير منهم بما يشيد • ويحرص على
تسجيله • ونلقى في مسجد الزيتونة مثلا رائعا لهذه العناية •
فهذا المسجد كما قال احد التونسيين الافاضل يحمل كتابه
بيمينه • وليس في تاريخ الآثار كلها في جميع البلاد وفي
جميع العصور مثلا يضاهيه من هذه الناحية • فقد انشيء وجدد
واصلح واضيف اليه وزيد فيه وزخرف في عصور مختلفة لو
تركت لعلماء الآثار ولكتب التاريخ لتضاربت الاقوال فيها

وتشعبت • غير ان كل ذلك مسجل على الحجارة في نقوش المسجد التي تتبين منها سنة خمسين ومائتين واحدى وثمانين وثلاثمـائة وخمس وثمانين وثلاثمائة وسبع وخمسين واربعمائة وأربع وسبعين واربعمائة وثمان واربعين وستمائة وست وسبعين وستمائة وست عشرة وسبعمائة واحـدى وعشرين وسبعمائـة واحدى واربعين وثمانمائة واحدى وتسعين وتسعمائة وسبع واربعين والف وسبع وسبعين ومائة والف وسبع وتسعين ومائة والف واثنتا عشرة وثلاثمائة والف واخيرا سنة تسع وخمسين وثلاثمائة والف • بل واكثر من هذا ان التاريخ قد سجـل في موضع من هذا المسجد الأعظم مرتين • كانت تجري تحت قبة البهو كتابة نقرا فيها « فتم بعونه وتاييده في سنة احـدى و • • • • وثلاثمائة » وسقطت حروف الرقم الذي بين الاحدى والثلاثمائة • وبينهما مرحلة تسعين عـاما • وكانما توقـع البناؤون هذا المصير فسجلوا اسماءهم على سارية تحت هـذه القبة واعادوا كتابة التاريخ ايضاحا وذكروا « كان ابتداء العمل في المجنبات والداموس والقبة في شهر ربيع الاول من سنة ثمانين وثلاثمائة • وتم جميع ذلك في شهر جمادى الاولى من سنة خمس وثمانين وثلاثمائة » ليس في هذا الاثر الفريد في العالم تاريخ الديار التونسية في مختلف العصور فحسب بل فيه ايضا تاريخ الخط العربي ونماذج لتطوره مجموعة في اثر واحد منذ منتصف القرن الثالث الهجري اي مدة الف ومائة

سنة • وليس فيما اعرف من ءاثار العمارة الاسلامية اثر ابدع مظهرا واشد روعة من صحن المسجد الجامع في سوسة التي تمتد حوله ءايات قرءانية مكتوبة بخط كوفي واضح مبسط كان يقروءه المصلون في عظة وخشوع فكانها تكتسب الاعجاب بجمالها مما يفيضه عليها من كلام الله •

وفي سوسة اقدم الاربطة القائمة المعروفة في الاسلام تحدثنا عن تاريخها وبالقرب منها رباط المنستير ما زال قائما متماسكا قويا • وكانت الاربطة تمتد على طول بلاد الساحل منذ بداية القرن الثالث الهجري او قبل ذلك • هذه الاربطة التي اقيمت لاغراض دينية وحربية معا كانت احصانا منيعة كالاسوار المحيطة بالمدن والتي ما زال باقيا منها في البلاد التونسية على حاله الاولى اسوار سوسة والمنستير واجزاء من اسوار القيروان •

ولست انكر انه كانت بالعصور السابقة للاسلام حصون وقلاع واسوار قد رءاها المسلمون واشتقوا منها انظمة اسوارهم واربطتهم وان كان علماء الاثار يختلفون في ذلك ايضا فالبعض يظن ان الوحي اتى المسلمين من ءاثار بيزنطية في بلاد المغرب والبعض الاخر يرجع الفضل في ذلك الى ءاثارهم في سوريا والمعروف انه اقيمت في العصر الاموي قصور حربية في الشام تشبه قصر الرباط في سوسة غير انها تهدمت معظمها وبقي قصر الرباط في سوسة يدلنا على عظمة فن البناء وصناعته في

العصور الاسلامية الاولى احسب ان كل من شاهد بناء هذا القصر او صومعته ادهشه نها غلبت الازمان وبقيت قائمة لم تهتز حيث هوت من حولها المباني ليس الفضل فيماشاهد البناة من اثار سابقة لعهدهم ولكن الفضل فيما عملوا وبما اضطلعوا وفيما ابتكروا وفيما تركوا لنا من اثار خالدة

ومثل هذا فيما اقيم من الفسقيات والمواجل التي كانت لا تحصى عدا فيما بين القيروان وسوسة وتونس وغيرها من البلاد في كل مكان من الصحراء والتي تبقى منهـا ما يعرف البعض منه في رقادة وفي القيروان والتي كانت عاملا كبيرا من عوامل رخاء البلاد في عصر الاغالبة • وهي ايضا عامـل كبير من عوامل الدلالة على تفوق هذه البلاد في فنون العمارة فالذي يروعنا اليوم من روءية هذه الاثار هو ضخامتها واتساعها ودقة صناعتها وقوة احتمالها • ولكنها كانت مع هذا في تلك العصور مظهرا من مظاهر الفن والابداع والجمـال • كـانت تنعكس على مياهها الصافية مناظر ما اقيم فيها او حـولها من منتزهات بديعة التنسيق • هذه المواجـل مصـدر من مصادر العمارة الاسلامية قلما نلقى مثلها في غير هذه البلاد وهي على كل حال اقدم ما نعرفه منها • وقد تعـددت اشكالها منهـا المتسطيل الفسيح ومنها المستـدير ومنها المربع • وفيها القائم على مستوى الارض والقائم فوق مستواها والمنحـوت في جوفها • وكلها عنوان الدقة والمهارة ومثار الدهشة والاعجاب

رايت منذ ايام السفرة في سوسه فهالني منظر الاقواس الضخمة التي بنيت في جوف الارض على عمق قد يزيد عن عشرين ميتراواوءكد انها لا تقل شانا عما اقامــه الرومان من قناطر وجسور ومع ذلك فما زالت معرفتنا باعمال البناة في ذلك العصر ضئيلة بالنسبة لما اقاموه من هذه الاعمال الجليلة النافعة كما اننا نكاد نجهل ما كانت عليه القصور والدور في ذلك العهد • ولو انه تبقى لنا منها بعضهالتجمعت في البلادالتونسية مصادرالعمارة الاسلامية منجميع نواحيها دينية وحربيةومدنية

وهذه المصادر تتجمـع بالنسبــة للزخرفـة في العهــد الاسلامي • اننا نستطيع مما تبقى من ءاثار هذه البلاد ان نتتبع تطور الزخارف الاسلامية منذ نشاتها وطيلة قرون عديدة بل وان نلقى منها عناصر تظهر فيها لاول مرة في الفن الاسلامي وتنتشر منها الى بلاد المشرق والمغرب والاندلس بل وتجتاز حدود البلاد الاسلامية الى بعض البلاد المسيحية في اوروبا

تظهر الزخارف في القيروان اول الامر بسيطة عارية دون كل رداء متخذة حليتها وجمالها من عناصر البناء نفسها • ثم ترى هذه الزخارف تتطور خلال المائة والخمسين سنة التالية تطورا سريعا في القيروان وفي سوسة وفي مسجد الزيتونة • وفي هذه الزخارف نلقى جميع انواع الزخرفة الاسلامية صناعة ورسما ونقشا • ونراها على اكمــل بهائها في لوحات الرخام التي تكسو محراب القيروان• يكاد المؤرخون يجمعون

على ان هذه اللوحات اقيمت سنة احدى وعشرين ومائتين في
عهد زيادة الله وقال البكري ان زيادة الله كـان يريد بناء
محراب جديد وهدم محراب عقبة فحيل بينه وبين ذلك وتقدم
اليه احد البناة وقال انا أدخله بين حائطين فلا يظهر في الجامع
اثر لغيرك . واقام له محرابا جديدا وهومبني بالرخام الابيض
من اعلاه الى اسفله مخرم منقوش كله منه كتابة تقـرا ومنه
تدبيج مختلف الصناعة يستدير به اعمدة رخام في غاية الحسن»
هذا ما قاله ابو عبيد الله البكري . غير ان ابن ناجي الدباغ
نقل عن الطبيجي في معالم الايمان ان ابا ابراهيم احمد اراد
ان يعمل مجلسا وملاهيا « فجلبت له من العراق قراميد ثمينة
جعلها في وجه المحراب وجلبت له من بغـداد خشب الساج
فعملها منبرا للجامع وجاء بالمحراب مفصلا رخاما من العراق
عمله في جامع القيروان وزينه تلك الزينة العجيبة بالرخـام
والذهب والآلة الحسنة » . ولعل فيما ذكره الطبيجي او نقله
ابن ناجي شيئا من المغالاة . فقد خلط القراميد بالرخام واراد
احد علماء الآثار ان يتخذ من هـذا الخلط حجـة ليثبت ان
لوحات المحراب الرخامية صنعت في العراق وليس لتونس
فضل فيها . غير ان الذي يدعي هذا القول او يصـدقه يجب
عليه ايضا ان يفترض ان اجزاء قبة القيـروان قد فصلت في
العراق وان ما يملا طاقاتها من زخارف حجرية وما يمتـد
تحت اقواسها وفوق محرابها من تربيعات زخرفية جلبتهي

الاخرى من العراق وان زخارف اسطوانة محراب المسجد الجامع بسوسة واطارات ابوابه الحجرية جلبت من العراق وان مئات من الاثار التي اقيمت في ذلك العهد في البلاد التونسية والتي اندثر بعضها وتبقى البعض الاخر فوق تيجان اعمدة المساجد قد جلبت كذلك من العراق • والحقيقة ان الذي جلب من العراق هو تلك القراميد القيشانية التي تكسو جدار القبلة وتحيط بعض المحراب في مسجد القيروان • فهي فريدة في هذا المسجد وفي الفن الاسلامي التونسي وان كان من المعروف ان بعض هذه القراميد صنع في القيروان لتتم بها زخرفة المحراب •

هذه اللوحات الرخامية تتدلى في صدر المحراب كانها ستار رقيق ينفذ الضوء من خرومه الصافية ويجري الهواء بين فتحاته الرشيقة ويتلالا بياضها الناصع ويبرق على ظل ماتتركه فجواتها من فراغ • هذا الطراز المخرم من النحت الذي يسمى بنقش الحديدة ان لم تكن اثاره في القيروان اقدمها عهدا في الفنون الاسلامية فهي من اكثر ما اخرجته هذه الفنون اتقانا ورقة في الصناعة • وهذا النوع من النحت الزخرفي ابتكار انفرد به الفن الاسلامي • وانتشر انتشارا رائعا في بلاد الغرب والاندلس واعجب به الكثيرون من رجال الفن المسيحي في بيزنطة واسبانيا وفرنسا وايطاليا في القرون الوسطى واخذوا اصوله فادخلوها على صناعة زخارفهم المنحوتة

تنتمي اكثر الزخارف التونسية في العهد الاغلبي في القيروان وسوسة وفي مسجد الزيتونة الى هذا الطراز المخرم ويضيق المجال للتحدث عما تتجلى به هذه الزخارف من ابداع وتنوع وعما تنم عليه من دقة ورقة وحذق واتقان • وهذا على كل حال يخرج عن موضوع هذا المقال

واريد ان اختم هذا المقال بذكر ناحيتين من الزخارف الاسلامية التي كان لها شان في مصادر الفن الاسلامي والتي يحتفظون منها باقدم الامثلة المعروفة في التاريخ •

اشرت عند ما ذكرت مجموعة ءاثار سوسة الى الاستعاضة عن السواري بالدعائم في البناء ذلك ان البناء المسلم لم تكن بين يديه المادة الرخامية الوافرة التي يحتاج اليها في صناعة السواري وما تعلوها من روءوس وتيجان . ولم يعد هذا تراجعا منه امام صعوبة في الصناعة فقد راينا اياديه ترفع من المباني اروعها ضخامة واشدها باسا وتحيك من الرخام والحجارة اكثر الاشكال دقة وارقها حلية • غير ان السواري كما راينا في سوسة قلت مواردها وكان على البناء المسلم ان يبحث عن طريقة يصنع بيده منها نظائر لها • وقد خطا الخطوة الاولى في القيروان ايضا اذ تشاهد في مواضع من قبته اعمدة صغيرة من الحجارة تعلوها تيجان تناسبها حجما

هذه التيجان مشتقة لا شك من التيجان الرومانية القديمة ولكنها في هذه المرحلة الاولى تظهر بشكل جديد لاول مرة

في تاريخ فن النحت • لقد اتيحت لي اخيرا فرصة دراسة هذه التيجان عن كثب فتبينت سرعة تطورها اذ ان جميع السواري التي تعلو قبتي مسجد الزيتونة اسلامية نحتا وشكلا ويظهر فيها مدى الابتكار الذي تولدت عنه جميع هذه التيجان تعبر عن زهرة الاقنثا ولكن النحات التونسي وضع ورقات هذه الزهرة على تيجانه بحيث تقف عند النقط الاساسية من جسد التاج في وسطه واطرافه • ومع هذا فقد تنوعت اشكال هذه الزهرة الواحدة فتارة يتكون التاج من صف واحد من الورقات وتارة من صفين • وبالرغم من تقارب اشكال الورقات واقتصارها على ثلاث فان التنوع ظاهر في امتدادها اوالتفافها وفي انتعاشها و شموخها •

هذا الشكل من التيجان الذي نشا في القيروان ونما في الزيتونة تطور تطورا شمل بلاد المغرب والاندلس • وقداثبت الاستاذ هونا نديز احد علماء الاثار الاسبانيين ان كثيرا من الكنائس والاديرة المسيحية في اوروبا في العصور الوسطى اشتقت اصولها وعناصرها وشكلها من التيجان الاسلامية في الاندلس ولو انه شاهد تيجان قباب الزيتونة لابان الاشتقاق منها وارجع الفضل اليها

واخيرا يبقى لي ان اقول كلمة في منبر القيروان وهو اقدم المنابر المعروفة في الاسلام وابعدها شهرة واكثرهاابداعا • قيل فيه كما قيل في لوحات رخام المحراب انه استجلب من

بغداد • ولكن الطبجي لم يقل انه صنع هناك ونقل ابن ناجي الدباغ أن خشب الساج وحده جلب من العراق وقال ان ابا ابراهيم احمدا كان يريد ان يعمل منها عيدانا (ي ملاهيا) فصلها منبرا للجامع وهذا يدل دلالة واضحة على انها صنعت في هذه الديار ويزداد هذا الراي ثقة باثر ءاخر من هذا النوع هو منبر جامع الزيتونة وان يكن اصغر حجما وثانا من منبر القيروان فهو متصل به متفرع منه يشابهه حلية وصناعة يتكون منبر القيروان من مائتين واثنتين وخمسين لوحة خشبية تنحصر كل منها في اطار زخرفي • وتبقى من منبر الزيتونة اربع واربعون لوحة • وقد نقشت كل من هذه الثلاثمائة نحتة فنية بزخارف منحوتة مخرمة مفرغة بدقة فائقه ورقه نادرة ورسم رشيق • وتجمعت في هذه اللوحات انواع مختلفة من الزخارف بنائية وهندسية متفرعة تارة متلاصقة تارة اخرى متعانقة احيانا او متشابكة ممتدة في البعض ملتفة في البعض الاخر • وقد يقترب شكل الواحدة منها عن بعد من الاخرى ولكنهما يختلفان عن قرب بحيث تلقى ثلاثمائة شكل زخرفي مختلف في هذين المنبرين • في هذه اللوحات تتبين طبيعة الفن الاسلامي وتتجلى فكرة رجاله فيسمو بهم الخيال الى ابعد الافاق وتمتد ابتكاراتهم حتى لا تقف عند حد وتتنوع امامهم الصور فلا تنطبع على شكل واحد وتتجزا في ايديهم الوحدة او على العكس تتزايد وتتضاعف ويقف النظر امام انشاءاتهم

حائرا لا يدري اين بدأت ولا اين تنتهي يلقى جديدا كلما جال بصره عليها فلا يمل ولا يضجر

هذه بعض النواحي التي تمتاز بها الاثار التونسية في الثلاث القرون الاولى للاسلام • وقد حاولت ان اشير الى اهمية هذه الآثار بالنسبة لنشاة الفنون الاسلامية وبالنسبة لتطور بعض عناصرها الهامة في تلك العصور الاولى وانتشارها الى بلاد الشرق والغرب • واني آمل ان البحث والاستكشاف عن اثار اخرى ما زالت في طي الكتمان سيسفر عن معرفة نواح ذات شان لا بالنسبة للآثار التونسية فحسب بل بالنسبة لتاريخ الفنون الاسلامية عامة •

احمد فكري

استاذ الآثار الاسلامية بجامعة فاروق الاول

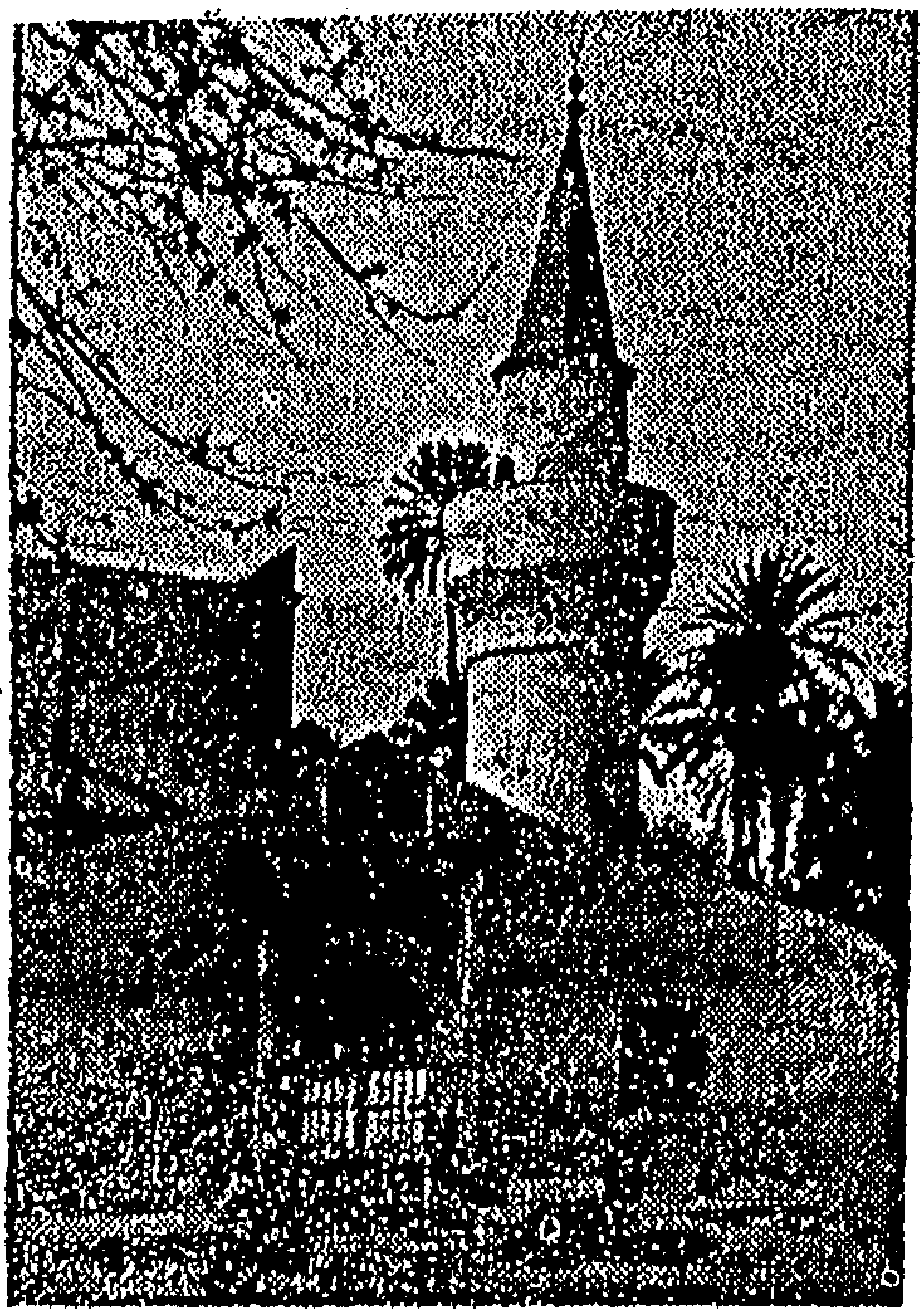

جامع سوق الجمعة

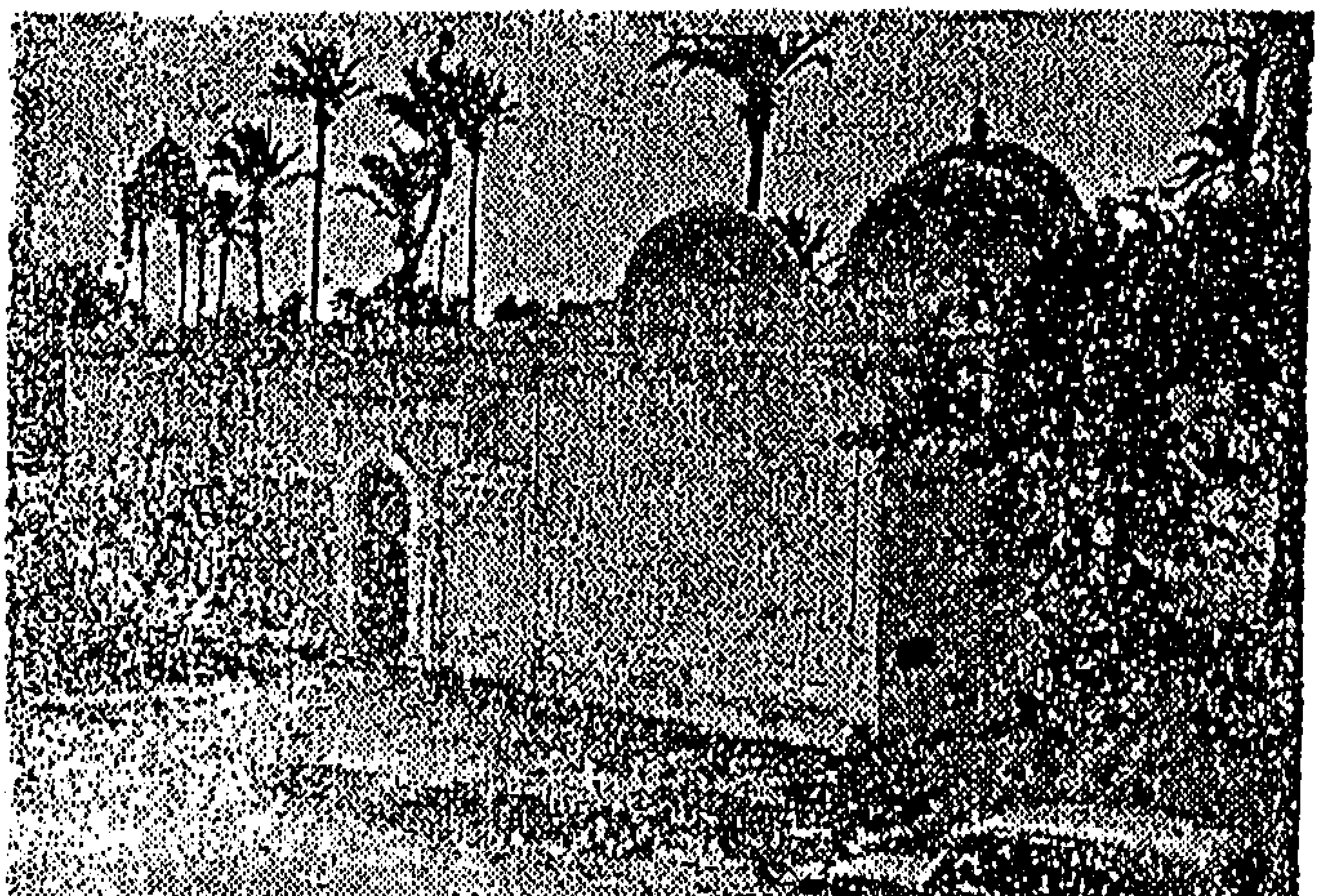

جامع الخروبة

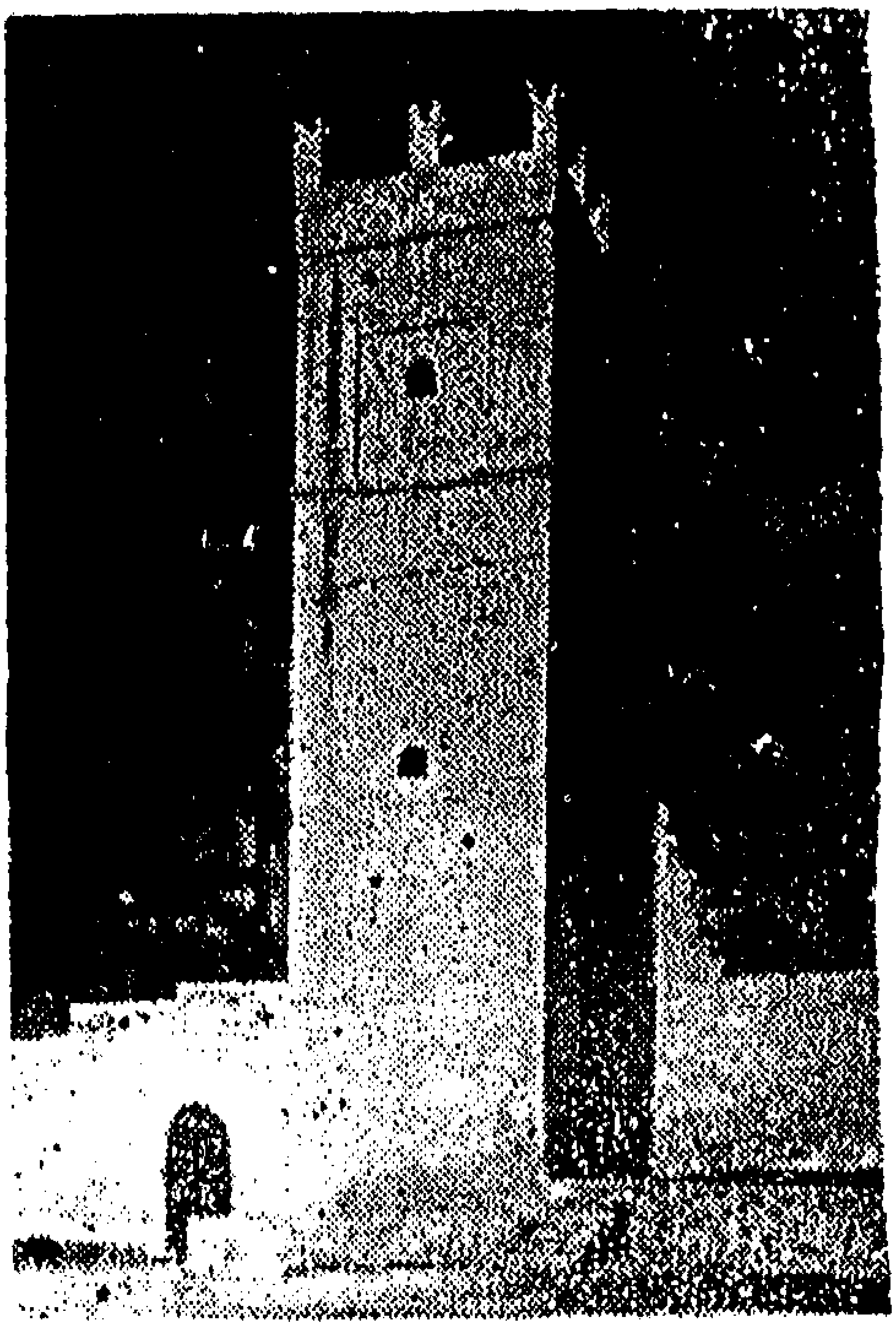

جامع شارع الزاوية

مسجد و زاوية بشارع الشّط

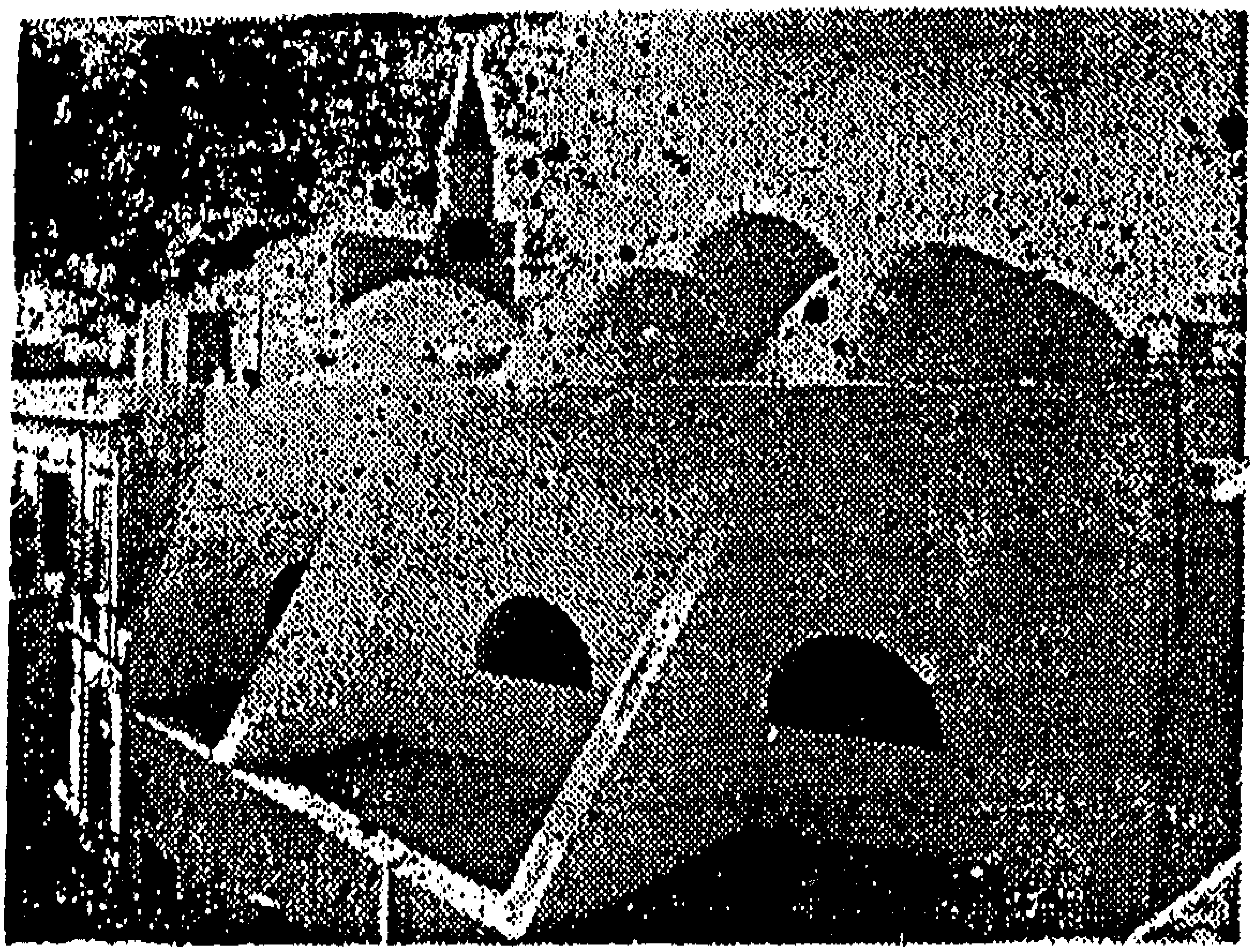

الزاوية الكبرى بشارع الشّط

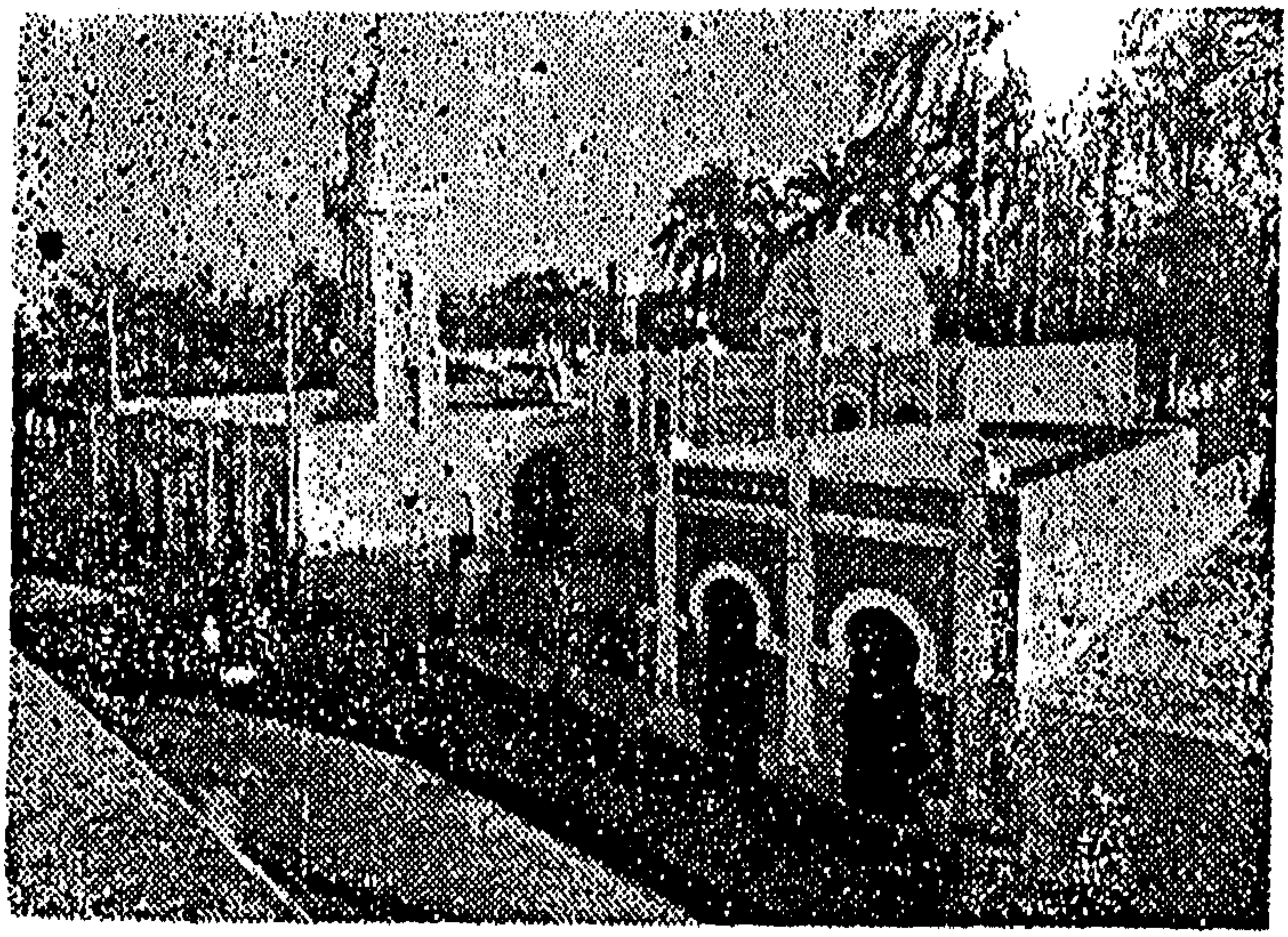

جامع قحطان

جامع قرجي

جامع الخروبة

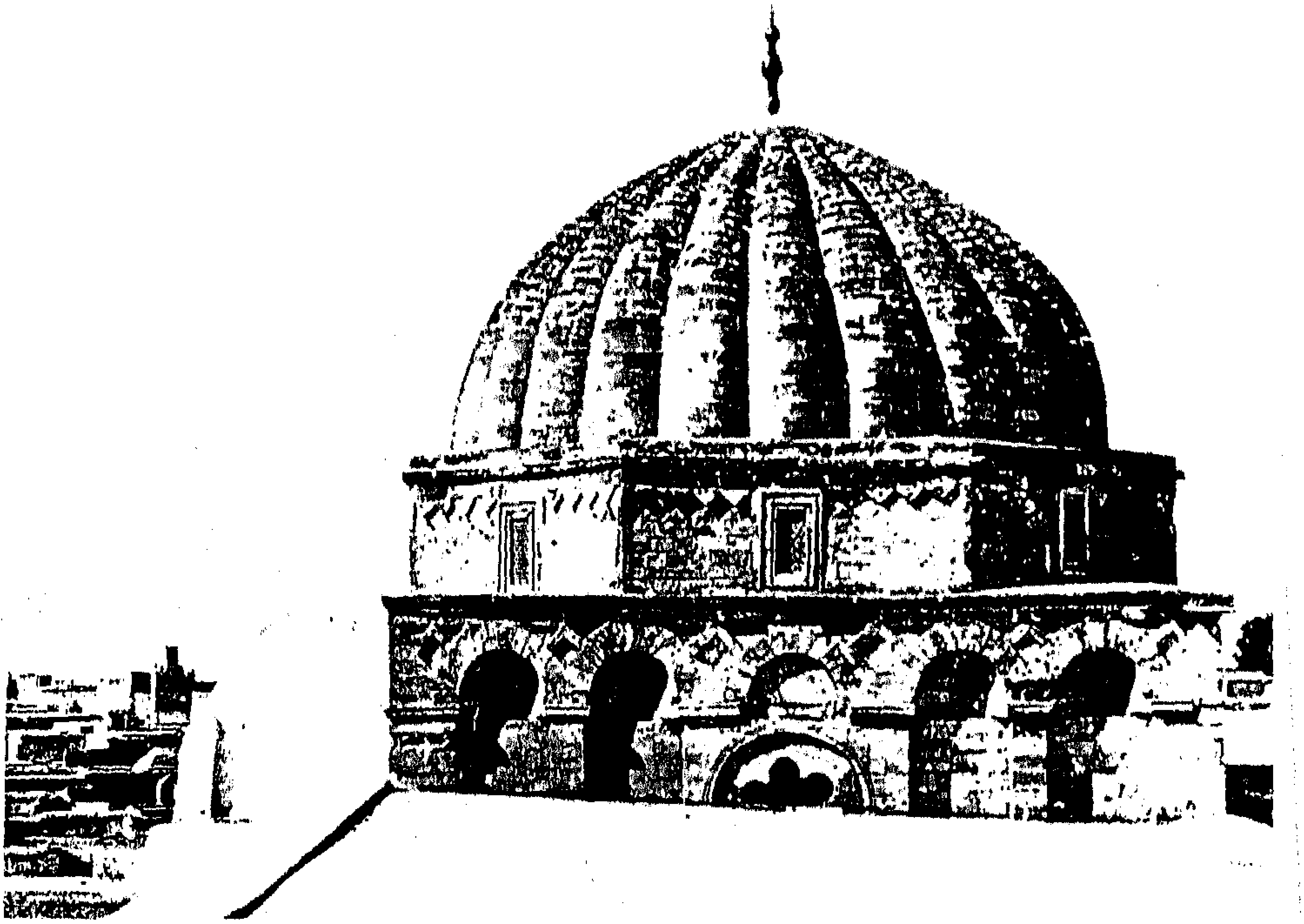

القيروان ـ الجامع الكبير : عقبة ـ القبة الجهة المقابلة للمحراب

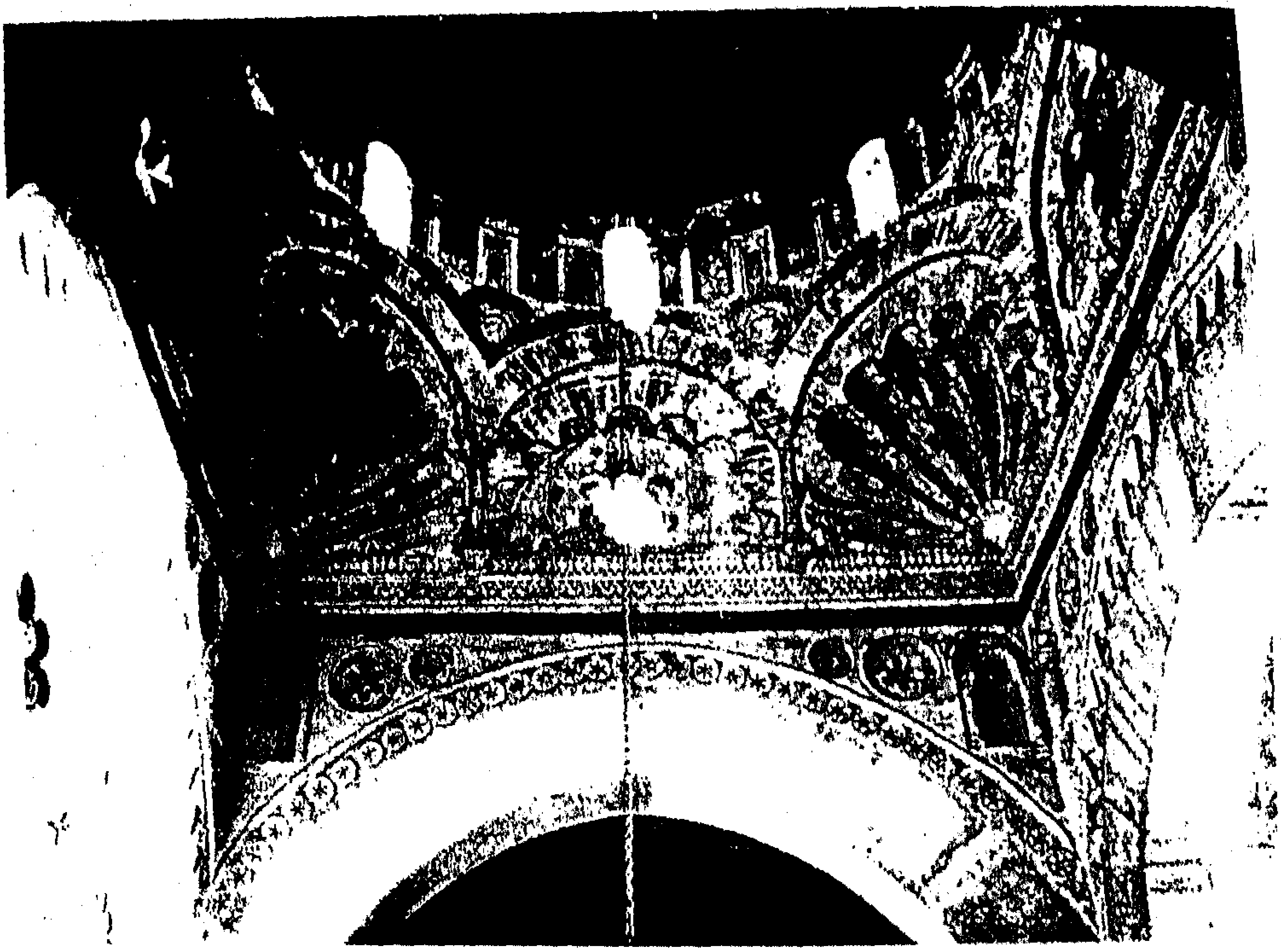

القيروان - الجامع الكبير: عقبة - القبة من الزاوية

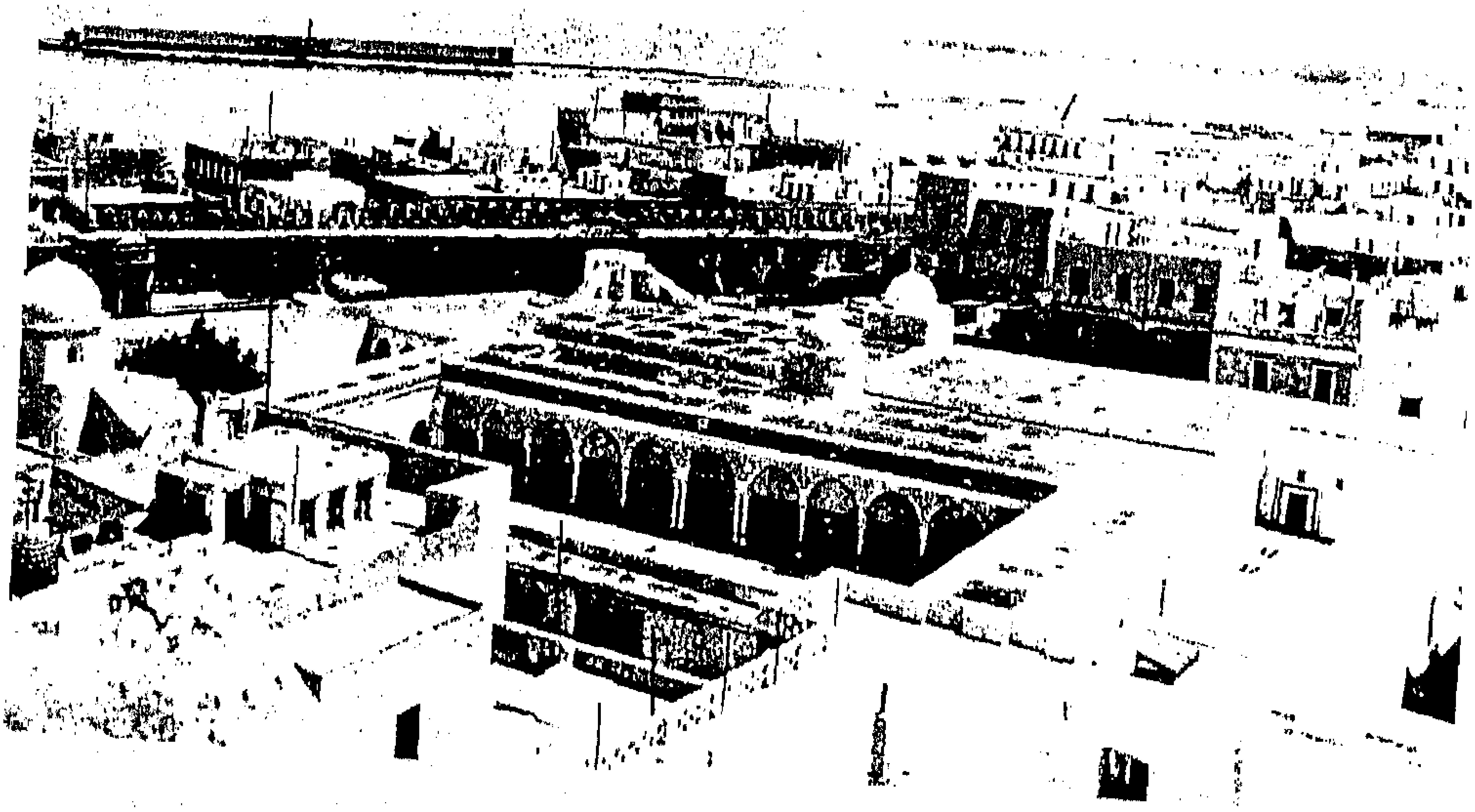

سوسة - الجامع الكبير : المشهد من قصر الرّباط المجاور

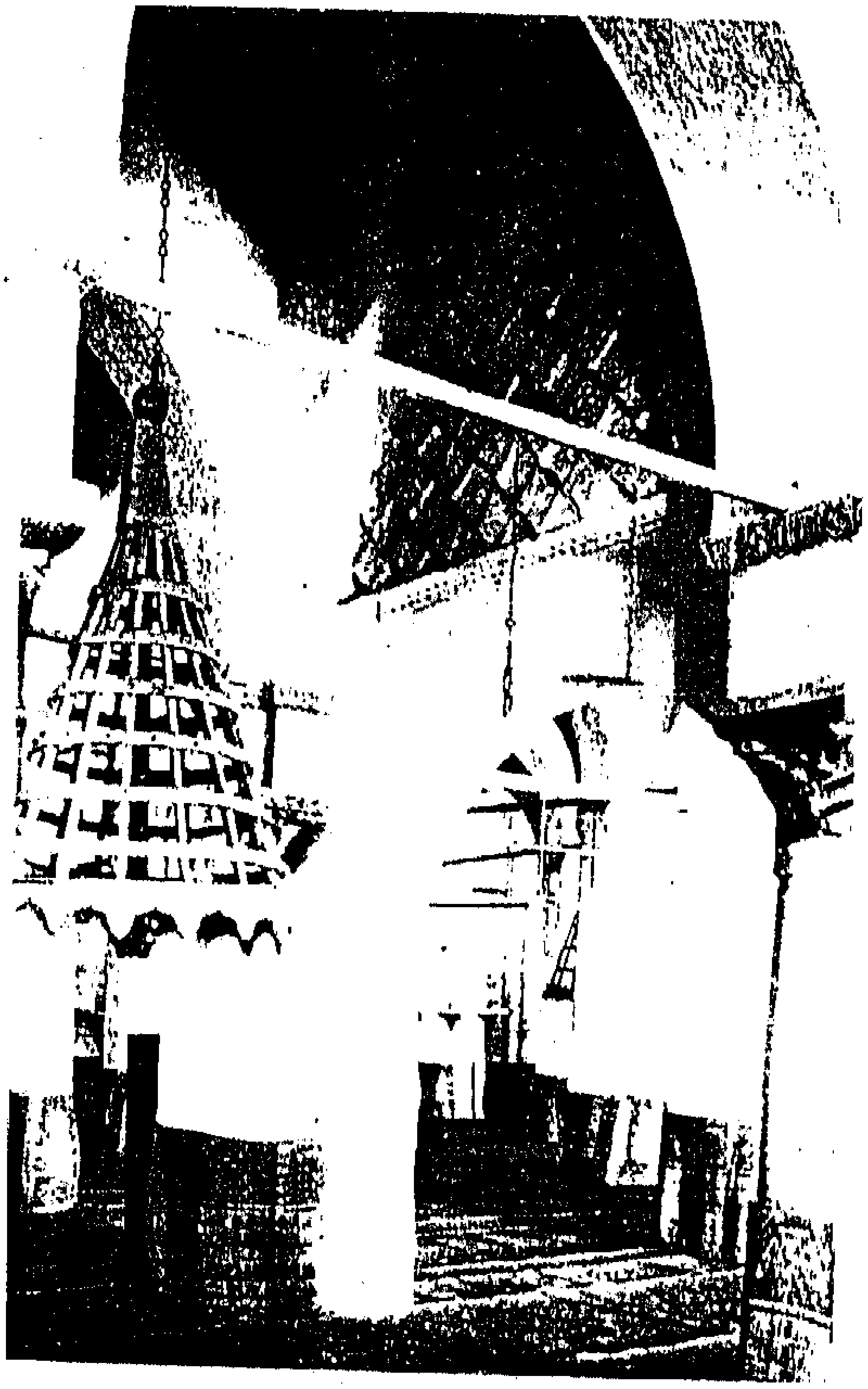

سوسة - الجامع الكبير: الجهة التي تحت القبة الأولى

مقـــدمـــة

للاستاذ الاكبر عثمان الكعاك

ان البحث عن الاثار التونسية لهو البحث عن مجد تونس الفني والادبي والعلمي وابانة مفاخر التونسيين وتوضيح القسط الاوفر المشرف مما تدموه للحضارة التونسية خاصة وللحضارة العالمية بصفة اعم ونحن لا نجد الاثار التونسية مقصورة عن الحدود الحالية لهذا القطر بل نجدها منتشرة ماثلة صارخة بمجدها بالمغرب والاندلس وصقلية وطرابلس ومصر وان العلائق الودية العربية الاسلامية التاريخية الراسخة كل الرسوخ بين تونس واختها الشقيقة ليبيا هي التي حملت الاستاذ مصطفى زبيس البحاثة الكبير والمنقب المدقق والمختص في معرفة الكتب والاثار على ان يقدم هذا المبحث الطريف والدراسة الممتعة عن جوامع ليبيا للنخبة النيرة الاسلامية اظهارا لعظمة الحضارة الليبية وتجلية لمظاهر التاريخ الليبي وتبيينا لتاثير الفن التونسي المعماري في الفن الليبي الشقيق وقد خدم بذلك الاستاذ مصطفى زبيس الاثار خدمة جليلة واقام الدليل على ان التونسي يستطيع ان يبحث في شؤونه بنفسه وان يضطلع بشؤونه بنفسه وانه لا يحتاج الى الاعانة الاجنبية مهما كانت ان تخدم تاريخه عوضا عنه فهو يشكر على ذلك اجزل الشكر .

القلائد الذهبية ببعض المساجد الليبية

بقلم الاستاذ مصطفى سليمان زبيس الكاتب العام للجنة الدفاع عن الآثار التونسية

عموميات عن المساجد

لم يكن للاسلام في عصره الاول عمارة تنسب اليه فلما فات عصر الفتوحات ودعت الحاجة الى انشاء القصور والمساجد وكان بالاقطار المفتوحة نماذج رائعة من الفن الفارسي والبيزانطي والمصري اخذ المسلمون من عناصرها ما وافق ميولهم وعقيدتهم واخرجوا فنا فنائيا جديدا اختصوا به واختص بهم ٠

ثم نقلوا هذا الفن الى المغرب الاسلامي فامتزج بافريقية بعناصر رومانية ضئيلة في النوع والتاثير وتاثر بالاندلس بعناصر محلية الا انه سريعا ما صار مثالا ينسج النصارى على منواله لما اصبحت له من شخصية قائمة بذاتها موءثرة الى ابعد حد

ويشمل هذا الفن البناء وصناعة الخشب والخز والصوف والخزف والغضار والجلد والمرمر والمعادن النفيسة والاحجار الكريمة وغيرها

وقد توجهت العناية بالخصوص الى تشييد المساجد

وتظافر الفنانون على اختلاف فنهم الى اكسابها البهجة والاناقة اللائقتين ببيوت الله عز وجل

وليسمح لنا القاريء النبيل ان نلمح هنا الى بعض خاصيات المساجد المغربية قبل الكلام على مساجد ليبيا

المساجد المغربية — يتركب المسجد المغربي من مصلى وصحن ومنارة ويتجه نحو القبلة اي نحو الكعبة الشريفة • والقبلة بالنسبة للمغرب الاسلامي هي الجنوب الشرقي

والمسجد المغربي في العهد الاول على نمط مسجد عمرو وابن طولون والحكم وعلى نمطها بني جامع الزيتونة بتونس والجامع الاغلبي بالقيروان وجامع قرطبة ومن خاصيات المسجد المغربي ان البلاطة الوسطى المؤدية الى المحراب هي اكثر عرضا من سواها وتلتقي هذه البلاطة الوسطى بمسكبة المحراب وهي في مثل عرضها

ولم يشاهد خروجا عن هذا النمط الا بعد ذلك العهد بمدة وذلك في جامع مراكش والرباط وتلمسان حيث تخلص الصانع المغربي من قيود التقليد واستقل بذوقه الخاص ووسائله المحلية وشرع في الابتكارات التي صارت سنة في الشرق والغرب

ولما كان المذهب المالكي هو السائد على سواه من المذاهب بالبلاد المغربية فقد اكتسبت المساجد بذلك ميزة تلوح لاول نظرة وهي شكل الصومعات علاوة عن جزئيات اخرى ولم يتغير هيكل المساجد الا بعد قدوم الاتراك حيث

اتوا باسلوب جديد اختصت به المساجد الحنفية

وبالجملة فان المساجد المغربية ذات جمال وكمال الى درجة لم يصلها غيرها . وجمالهـا ليس في التكليف ووفرة الزخرفة مع توفرها احيانا بل هو ايضا بساطتها واحتشامهـا ذلك ان الاسلام المغربي اسلام خشوع وتقشف وزهد فكانت المساجد مثلا شاهدا على ذلك

المساجد الليبيـة (١)

جامع عمرو بن العاصي بزنزور ــ « .. وحللنا بمنزل زنزور فرايت الاشجار وبها مياه عذبة واكثر شجرها الزيتون واكثره من الغرس القديم على نحو زيتون الساحل وبها معذلك نخل كثير ... وهي اشبه البقاع بجزيرة جربة هياة غراسة واتصال عمارة ... وبها جامع متسع للخطبـة يـذكر ان عمرو بن العاصي رحمه الله اسه واحتجر من هذا الجامع موضع فدفنت فيه ام سالم بن مرغم وكثير من ولده وضرب عليه بباب ....

مسجد ابي محمد الجليـل الحكيمي بزنزور ــ ... وزرت بخارج الغابة من هذه القرية قبر الشيـخ أبي محمد عبد الجليل الحكيمي وهو على ساحل البحر يجاور مسجده الـذي كان انفرد فيه بنفسه وتخلى عن ابناء جنسه وهذا المسجد من المحارس

(١) ما سبق من المساجد اخذ برمته من رحلة التجاني (مخطوط) ــ المؤلف ــ جوان ١٩٤٦ ــ

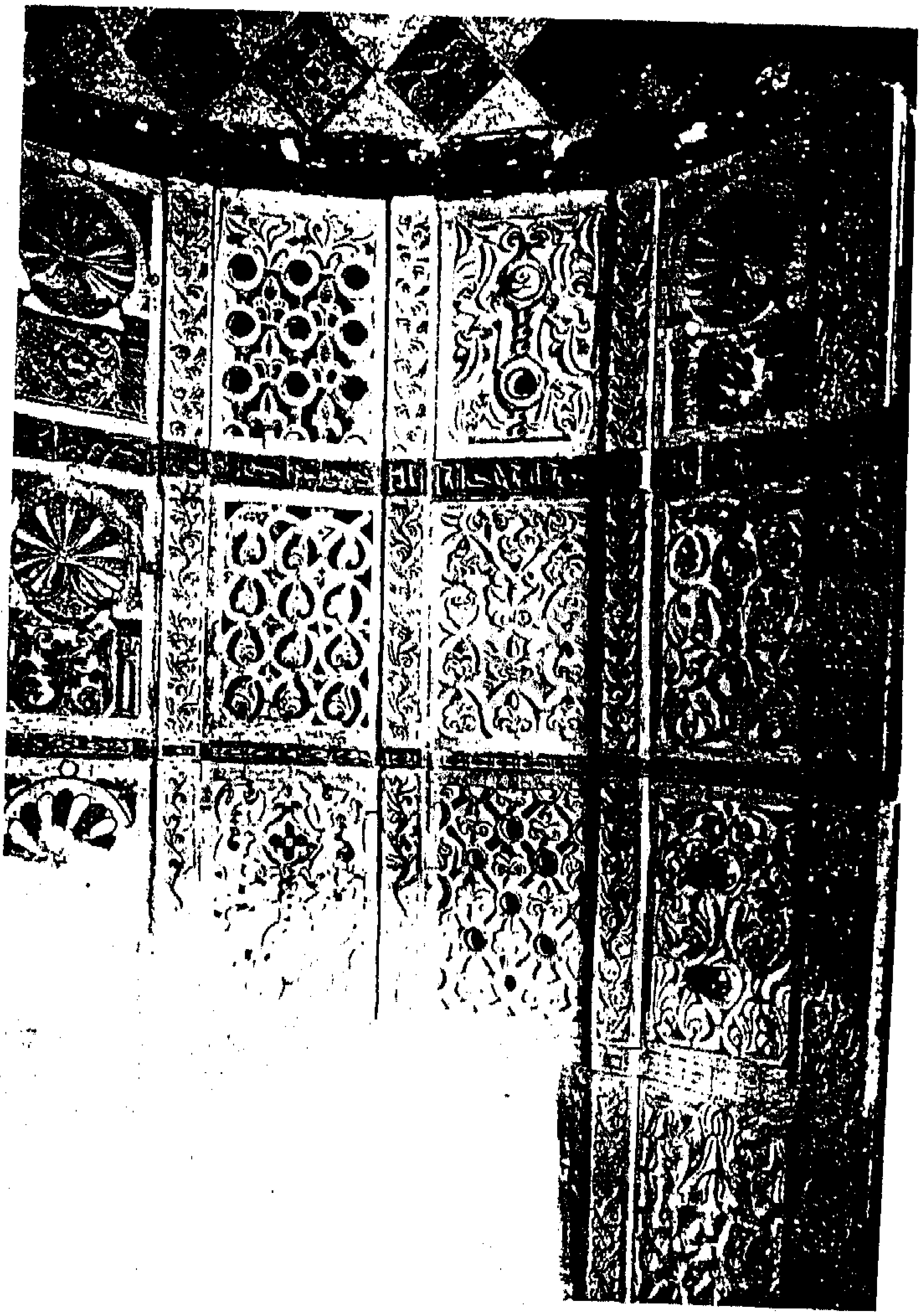

القيروان - الجامع الكبير: عقبة لوحات من المرمر بالمحراب

القيروان ـــ الجامع الكبير : عقبة - المحراب وما حوله

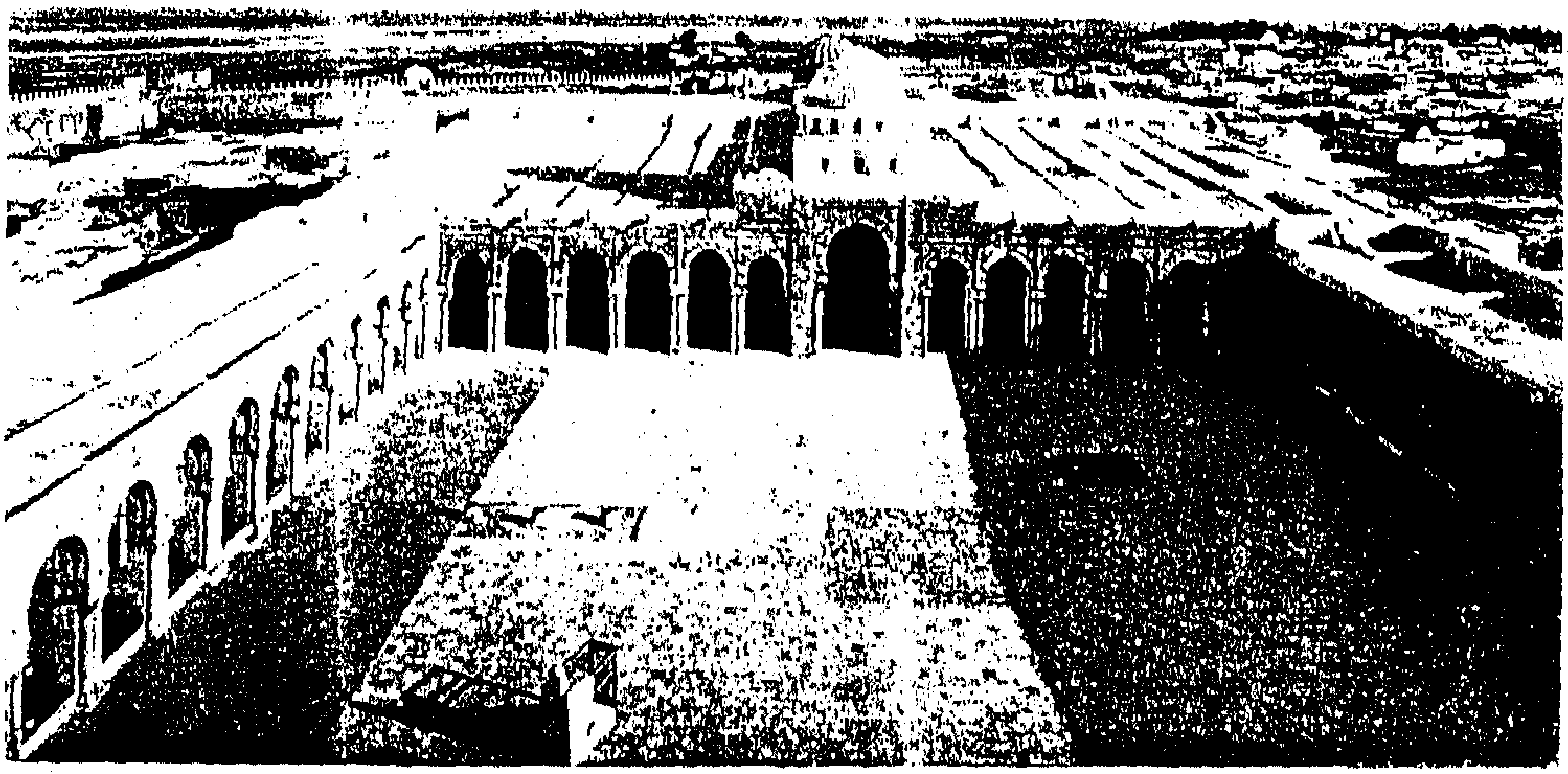

القيروان – الجامع الكبير: عقبة – منظر من الصّومعة

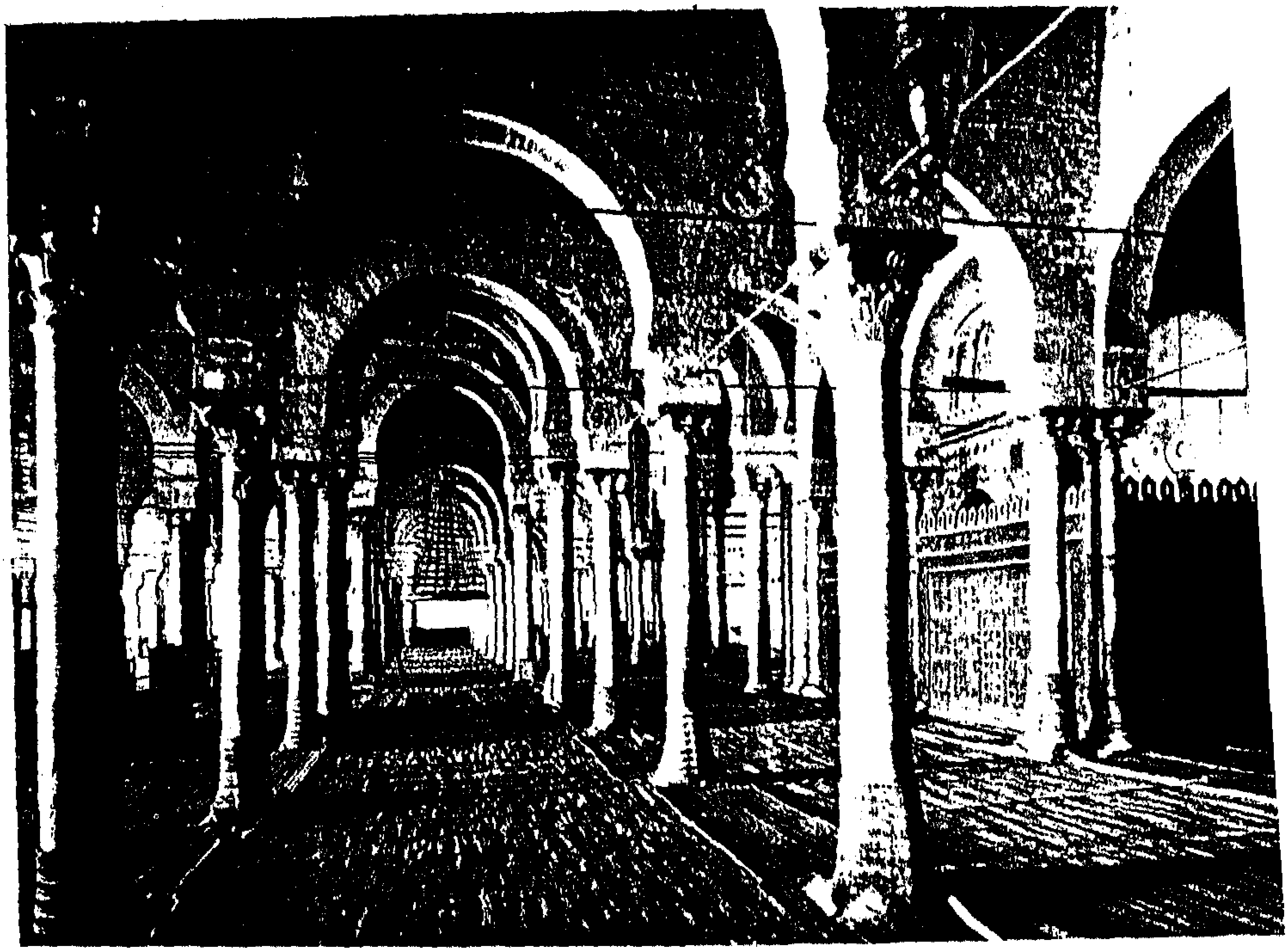

القيروان - الجامع الكبير: عقبة - داخل بيت الصلاة إلى الشرق

القديمة البناء المفرطة الحصانة وانما اضيف اليه لسكناه به وبنائه الى جانبه واصله من العرب الحكيميين وأهل هذه الجهة يعظمونه كثيرا

واخبرني جماعة منهم انه مات وقد نيف عمره على المائة والعشرين وكانت وفاته يوم الاحد الثالث لشهر ربيع الأول المبارك من عام خمسة وثمانين وستمائة رايت هذا مكتوبا على قبره

مسجد سيقلطة بزنزور ــ وعلى مسافة يسيرة من مسجده هذا من جهة غربيه على الساحل ايضا مسجد يعرف بسيقاطة بكسر السين المهمل وبالقاف ابتناه الفقيه الصالح ابو الحسن السيقاطي رحمه الله وبه كان يتعبد وهنالك قبره زرته ودعوت عنده وكانت وفاته قديما سنة عشرين واربعمائة وخرج جميع اهل طرابلس ومن حف بها من النواحي والبلاد فصلوا عليه وكان له يوم مشهود .

وتوفيت لمخدومنا في اثناء اقامتنا بزنزور ابنة صغيرة فدفنت بخارج مسجد سيقاطة هذا

محارس اغلبية ــ وعلى الساحل بطوله مساجد كثيرة وهي مساكن للصالحين قديما وحديثا شهيرة والناس يزورونها ويتبركون بها وانها لمن احسن المساكن لمن يريد الانفراد لعبادة ربه والساكن بها يجمع بين الاحتراس ومجانبة الناس

واكثرها من مباني ابن الاغلب مبتني المحارس من الاسكندرية الى مجاز سبتة ...

مسجد العشرة بطرابلس – ولما توجهنا الى طرابلس واشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يغشي الابصار فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء وخرج جميع اهلها مظهرين الاستبشار رافعين اصواتهم بالدعاء وتخلى ولي البلد اذ ذاك عن موضع سكناه وهو قصبة البلد فنزلنا بها ورأينا آثار الضخامة بادية على هذه القصبة غير ان الخراب قد تمكن منها وقد باع الولاة اكثرها فما حولها من الدور التي تكتنفها الان انما استخرجت منها ولها رحبتان متسعتان وفي الخارج منها المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة لان عشرة من اشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة فيدبرون امر البلد وذلك قبل تملك الموحدين لها فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم وزال عن المسجد ذلك الاسم ...

ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة فرايت حماما صغير الساحة ... وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها وهو الان محبس على بعض المساجد

مسجد موقف الغنم بطرابلس – ... ويقابل باب الستارة المعروف بباب عبد الله من السور القديم باب يعرف بباب هوارة نسبة الى من نزل به في اول الزمان وبين يديه من

داخل المدينة بطحاء متسعة يعرفونها بموقف الغنم يبيعون بها اغنامهم ومواشيهم •

وهنالك مسجد ينسب بناوءه الى عمرو بن العاص رحمه الله تعالى وفي هذا الموضع يقول ابو يحيى بن يطروح •• :

لوقفــة عنــد بــاب البحر ضـاحيـة
او بــاب هــوارة او مــوقف الغنــم
اشهى الى النفس من كسر الخليج ومن
دير الزجاج وشاطىء بركـة الخـدم

مسجد الامام المهدي بطرابلس — وبين الباب المعروف بالباب الاخضر منها مسجد معاقب لسور المدينة أشادة بذكر حلول الامام المهدي رحمه الله به حين جوازه على طرابلس

والى جانبه ميضاة جعلت هنالك للمتوضئين والمغتسلين والمواضع الخربة من المدينة والخالية انما هي بين يدي الباب الاخضر وبخارج باب البحر منها منظر من انزه المناظر مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة

مصلى طرابلس — ومصلى البلد بجانبه بين جنوب وشرق منه وهو محدث الوضع هنالك وانما كان المصلى القديم في الجهة الغربية هنالك بناه عبد الله بن ابي مسلم وخليل بن اسحاق سنة ثلاثمائة فنقل كما تقدم وموضع المصلى القديم يعرف الان بالعيون سمي بذلك لان هنالك عيون ماء عذبة وهو بشاطيء البحر وماوءها ينصرف اليه

مسجد الشعاب بطرابلس ـ ... وبخارج البلـد محارس قديمة ومساجد كثيرة مشهورة بالفضل مزورة للبركـة واثنى البكري على المسجد المعروف بمسجد الشعاب وذكرانه اعمرها واشهرها يريد في ذلك الزمان واما الان فهو خال لا عمارة به . وقد راينا ان نذكر بناء هذا المسجد الذي اشار اليهالبكري وبعض ما تادى الينا من خبره ومثل ذلك في غيره منالمساجد التي بخارج البلد تتميما لفوائد هذا التقييد بحول الله تعـالى

فمنها مسجد الشعاب المذكور وهو منسوب لابي محمـد عبد الله الشعاب احد الصلحاء الفضلاء من اهل طرابلس وكان نجارا ونسب المسجد المذكور اليه لانه هو الذي اتم بناءه ولزم السكنى به وكان بعض الناس قبله قد ابتدا بناءه ثموقف عنه فحصرت الشعاب نية في إتمامه فرمى الالة من يده وتوجه الى قاضي طرابلس فقال له اني عزمت على بناء ذلك المسجد واحب ان تستدعي فلانا الذي ابتدا بناءه فتستفهمه هل يتمادى على بنائه او يرفع يده عنه فاتمه واسكن به فاستحضر القاضي وساله عن ذلك فاقر بعجزه فتولى الشعاب بناءه وسكن به

ويذكر ان الخضر عليه السلام كـان يزور الشعاب هذا ويحادثه وانهما رئيا مجتمعين في المسجد المذكور

وسمع الشعاب يوما بكاء امراة عند باب مسجده فسالهاعن سبب بكائها فاخبرته ان لها ولدا اسره عدو الدين وسالته الدعاء بخلاصه فدعا له وامنت المراة على دعائه ثم انصرفت المراة

لى بيتها فاصبح ولدها في السكك يسال عن دار امه فسئل فاخبر بفراره في البحر وسلامته ووصوله عن عهد قريب فتوجهت لمراة الى الشيخ تشكره وتعرفه بوصول ولدها وان ذلك انما كان ببركة دعائه فهناها بسلامته وقال لها انما نجاه الله بدعائك لما علم اضطرارك

وكانت وفاته رحمه الله سنة ثلاث واربعين ومائتين

مسجد خطاب بطرابلس — ومنها مسجد خطاب وهو بخارج المدينة من جهة شرقيها على البحر وينسب للشيخ خطاب البرقي الرجل الصالح ويكنى ابا نزار وكان ذا كرامات وخصوصا في باب المرائي ظهرت له في ذلك عجائب وكان يخاطب في النوم بجميع ما يكون في اليقظة قبل كونه ...

مسجد الجدود بطرابلس — ومنها المسجد المعروف بالجدود ويعرف ايضا بمسجد الجدة لان احدى جدات بني الاغلب ولاة افريقية بنته وهكذا كان يعرف في القديم ثم يعرف بعد بمسجد البارزي لسكنى ابي الحسن البارزي به

وهو بخارج طرابلس من جهة جوفيها مشرف على المقابر واشتهر هذا المسجد بسكنى ابي عثمان سعيد بن خلفون الحساني المعروف بالمستجاب واصله من قرية حسان من قرى طرابلس كان زاهدا فاضلا منقطعا الى الله سبحانه وظهرت بركته غاية فعرف بالمستجاب

يوم جالسا فيه على عادته فسمع تحته دويا عظيما اهتز المسجد له فخرج بعض من كان معه لاختبار ذلك فوجد شخصا يقطع الحجارة من كهف تحت المسجد فنهاه عن ذلك فلم ينته فرجع الى الشيخ فاخبره فنزل الشيخ اليه وقال له اتــق الله فانك تزلزل المسجد بهذا الذي تصنع فقال ارجع ايها الشيخ الى مسجدك فان الوالي امرني بهذا فقال لو امرك الوالي بهــدم المسجد كنت تهدمه قال نعم والله لوامرني بذلك لفعلت فرجع الشيخ الى مسجده وهو يقول اللهم احصد عمره فعند استقرار الشيخ في المسجد سقط جزء من ذلك الكهف على الرجل فقتله

مسجد المجاز بطرابلس — ومنها المسجـد المعروف مسجـد المجاز وكان معروفا بسكنى ابي الحسن علي بن احمــد بن الخطيب اقام ساكنا به فيما يقال اربعين سنة وكان فقيها صالحا عالما زاهدا وله في الفقه والفرائض والشروط تواليف مفيدة ٠

مسجد القبة بطرابلس — وبداخل البلدمدارس كثيرةو حسنها المدرسة المستنصرية التي كان بناوءها على يد الفقيه ابي محمد عبد الحميد بن ابي البركات بن ابي الدنيا ٠٠٠

وبين هذه المدرسة وباب البحر مبنى من المباني القديمة العجيبة وهو شكل قبة من الرخام المنحوت المتناسب الاعالي والنحوت التي لا تستطيع المائة نقل القطعة الواحدة ٠٠٠ وقد بني الان عليها مسجد يصلى فيه

واخبرت ان ذلك لان لان بعض الكبراء حاول هدمها واخذ رخامها وعلى بعض قطعها من الجهة الشمالية اسطر مكتوبة بخط رومي اخبرني ابو البركات ابن الفقيه ابي محمد بن ابي الدنيا عن والده الفقيه ابي محمد انه لم يزل معتنيا بالبحث عمن يحسن ترجمتها وانه وجد نصرانيا يعرف ذلك الخط فذكر له ان نصه : امر ببناء هذه الكنيسة فلان بن فلان من حلال ماله الذي اكتسبه من غلة زيتونه وفي يوم اتمامه لبنائها او يوم شروعه في بنائها وصل اليه الخبر من الشام ان نبيا من العرب ظهر بالحجاز اسمه محمد بن عبد الله

الجامع الاعظم بطرابلس — وبين القصبة وهذه المدرسة المتقدمة جامع طرابلس الاعظم الذي بناه بنو عبيد وهو جامع متسع على اعمدة مرتفعة وشقفه حديث التجديد وبه منار متسع مرتفع قائم من الارض على اعمدة متسديرة فلما تم نصفه كذلك سدس وكان بناوءه في العام المكمل للمائة الثالثة على يد خليل ابن اسحاق ...

واخبرني صاحبنا الفقيه ابو العباس احمد بن عبد السلام الاموي قال نقلت من خط القاضي ابي موسى بن معمر ان شكرا المعروف بالصقلي أبتنى الماجل الذي بجامع طرابلس من الجهة الجوفية والقبة التي عليه في سنة تسع وستين ومائتين وان خليل بن اسحاق ابتنى المنار الذي به كما ذكرنا

ومساجد البلد لا تحصى كثرة وهي تكاد تناهز الدورعلة

مسجد ابي فارس عبد العزيز بن عبيد بطرابلس — والقائم برسم العلم في هذه البلدة في وقتنا هذا شيخنا الامام الحافظ ابو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام ... ابن عبيد وهو رجل ليس من عمرو ولا من زيد ناهيك من رجل قد نال من المعارف ما اشتهى ... حضرت دروسه بمسجد مجاور لداره فرايت رجلا متضلعا من العلم ذاكرا بالمذهب ذاكرا لا يجاريه فيه احد ... مشاركا في علوم جمة .. وهو سبائي النسبة ... مولده بطرابلس عام تسع وثلاثين وستمائة

مسجد ابن فرج بطرابلس — وعلى مسافة يسيرة (من الجامع الاعظم من الجهة الغربية) دار الشيخ الفقيه ابي الحسن علي ابن محمد بن المنمر الطرابلسي الفرضي المشتهر فضله وعلمه ورئاسته وهي مزاحمة لمسجد يعرفونه بمسجد ابن فرج اضيف الى الفقيه ابي مسلم موءمن بن فرج الهواري الطرابلسي لاقرائه به وتوفي ابو مسلم هذا سنة اثنين واربعين واربعمائة وكان مولد ابي الحسن بطرابلس قديما سنة ثمان واربعين وثلاثمائة ... لقي الشيخ ابا محمد بن يزيد وقرا عليه

(انتهى)

أحمد فكري

أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة فاروق الأول سابقا

طبع من هذا الكتاب 3000 نسخة

ISBN : 9973 - 25 - 069 - 9

الثمن : 2.000 د.ت

مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر

سوسة - الجمهورية التونسية

أكتوبر 1998